أســـوديم

أسوديم / قصص
مهرجان النشر الجماعي
مركز التكعيبة للتنمية الفنية والثقافية
مدير المركز : أحمد حسن
الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج
موبايل :٠١١٠٦٢٢١٠٣
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
محمد حسن
تدقيق لغوي :
سارة سرحان
رقم الإيداع : ٢٠٠٤١/٢٠١٠
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٥٠١- ٩

أسوديم

قصص

مهرجان النشر للجميع

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع



رشة من ورق الليمون

آية علم الدين

"أنا.. سيد هذا الحي بأكمله"..

لا يغركم مظهري المهمل.. فهذه ملابس العمل.. ولا يغركم جسدي الضئيل.. فقوتي وسلطتي مختزنتين في عقلي.. أنا أدير هذا الحي في الخفاء.. لا أحد يعلم دبيب النمل فيه مثلي..

عندما أتيت إلى حي المغربلين منذ ثلاث سنوات لأعمل في عطارة الحاج فوزي؛ لم تكن العطارة بهذا الشكل، ولم يكن الحاج فوزي قد افتتح الفرع الآخر في حي الحسين بعد.. كان دائم المكوث في المحل، ولم أكن أنا على كل ذلك العلم الغزير بأحوال وطبائع الحي وسكانه، بل والسائحين القادمين له من كل مكان..

ثلاث سنوات كانت كافية لأن أتعلم أربع لغات غير العربية، وأن أتعلم وصفات الطب والسحر وفك الأعمال السفلية.. ناهيك عن أنني كنت أحد الأفذاذ في مادة الكيمياء في الثانوية العامة، قبل أن أترك الدراسة وآتي للعمل هنا في هذه العطارة.. ألم أقل من قبل أنني مختلف..

هم لا يعلمون.. لذا فأنا أتصرف في أمورهم بحرية كبيرة.. أتغلغل في تفاصيل حياتهم بشكل غير ملموس.. أحركهم كالعرائس كما يحرك الحاوي العرائس القطنية في المولد..

- واد يا جعفر.. إبعتلي نص كيلو كمون مع سعيد..

- حاضر يا أم سعيد.

أجل.. أنا هذا الجعفر الذي تناديه تلك البدينة الخرقاء.. تبًّا لهم جميعًا؛ يعاملونني كالصبي، رغم أنني تخطيت العشرين منذ حوالي شهرين.. حتى شاربي العريض - الذي أُطلقه كي يعرفون سني - لا يمنعهم أن ينعتوني بصفات الصبية وعمال المحالّ، كل ذلك لأن جسدي صغير نحيل.. هم بسطاء لدرجة أنهم لا يعرفون كم أتحكم في حياتهم.. بسطاء بحق.

"رشَّة من ورق الليمون المجفف على البخور الهندي العتيق ستأسر قلوب سكان الحي و السائحين".

لا تتعجبوا.. فأنا أعرف تأثير تلك الرائحة على كل فرد منهم.. ستسري الرائحة في الشارع الضيق الطويل، وسيتعرج طريقها بتعرجاته وانحناءاته.. ستدخل من فتحات المشربية التي تجلس وراءها هند طالبة الحقوق في الدور الثاني، التي تحب أ/ ماهر مدرس اللغة العربية الأرمل الذي يعول اثنين من الأولاد..

ستفتح المشربية كي تسمح للرائحة أن تملأ غرفتها، ثم تلقي نظرة على الدور الثالث في البيت المقابل؛ علّها تجده، ثم تغلق المشربية بميل مرة أخرى كعادتها..

ستسري الرائحة أيضًا حتى تطال أم عماد في البيت التالي.. أم عماد بطبيعتها شريرة، لا تحب الخير لأحد، وأنا أتعامل معها كما يليق بشيطان صغير، أعطاه الله أسرار الأعمال السفلية وتراكيب السحرة المخضرمين.. ستتذكر أم عماد أنها لم تقم اليوم برش المياه الممزوجة بالخلطة التي أعطيتها إياها منذ أسبوع؛ لترشها أمام بيت أم أنور جارتها الثرية - التي تدّعي الفقر - زوجة الحاج عبيد صاحب محلات القماش..

ستخرج أم عماد على الفور لتلقي بالجردل أمام بيت أم أنور المقابل لبيتها، ثم تدخل على الفور..

أم أنور أيضًا تعتمد على الخلطة القديمة التي أعطيتها إياها منذ سنة، وهي تستخدمها كبخور للتحصين.. إلا أنها لا تعلم أن خلطة أم عماد مفعولها أقوى؛ شريطة أن تمر هي عليها سبع مرات.. اليوم هو اليوم السابع؛ لكن أم أنور لم تخرج من بيتها منذ يومين، الأمر الذي سيؤجل النتيجة التي أنتظرها بفارغ الصبر.. يبدو أنها قد رأت أم عماد وهي ترش المياه في إحدى المرات..

من المؤكد أن الحي سيُقلب رأسًا على عقب بعد أن تكتشف أم أنور ما فعلته جارتها.. ترى بأي ضرر سيأتي العمل على بيت أم أنور.. هل ستتحطم سيارة الحاج، أم ستطلق ابنته التي لم تتم عامها الثاني في الزواج؟!!.. سنرى.. أيًا كان الأمر، فيدي الحريرية لن تخرج منه..

عمومًا.. عليَّ أن أراقب جيدًا؛ فربما خرجت أم أنور اليوم، وينتهي فضولي، وأرى ثمرة ما فعلت.

في وسط النهار يأتيني أ/ ماهر تتصبب وجنته البيضاء بالعرق، ممسكًا شنطته، عائدًا من المدرسة، وفي يده أحد أولاده يسألني: ماعندكش حاجة للصداع يا جعفر؟!.. بقالي يومين دماغي هتنفجر.

أُفرغ له بعض الأعشاب في كيس صغير، وأعطيه له قائلًا: إغليه وسيبه يبرد، واشرب منه كوباية كل يوم.. وادعيلي.

- حسابك كام؟

- خلي يا أ/ ماهر، تلاتة جنيه ونص.

- ماشي يا سيدي.. بس لو الصداع مراحش هاجي آخدهم منك.

- هيروح إن شاء الله.

كم هو طيب ساذج هذا الأستاذ؛ لا زال يشك في وصفاتي بعد كل هذه التجارب.. إذن؛ غدًا يعرف كما بقية الحي كم لعبت بحياتهم.

فماذا عن أم أنور.. لم يزل باب بيتها الحديدي مغلق كما سجن تحبس نفسها فيه خوفًا.. تستعين على الأعمال برائحة البخور الرخيص التي ملأت الشارع الضيق بها حتى غطت على رائحتي.. هذه المرأة تستجدي عدائي دون أن تشعر.. تبًّا للسذاجة.. لو أتتني تلك المرأة لأعطيتها خلاصة لم أعطها لأحد من قبل؛ حتى تبطل سحر أم عماد الشريرة، وترده عليها وبالًا.. لكنها لم تأتِ.. إذن؛ فلأبقَ في صف تلك الخيزبون أم عماد حتى نرى ماذا سيحدث.

في المساء يأتي أبو أنور.. ينزل من سيارته معتدلًا ببنيته القوية، لم يمسه سوء.. سيارته كما هي.. ابتسامته لا تفارق وجهه الممتلئ.. يفتح الباب المغلق من الصباح، ويدخل في سلام.. متى إذن يعمل السحر؟!!

في الغد تتكرر كل الأشياء.. أغمر أنا حي المغربلين العتيق برائحة البخور المنبعثة من العطارة؛ لتصل إلى آخر الحي.. يتفاعل معها أهل الحارة كعادتهم.. تخرج أم عماد لتلقي

بالمياه.. وحدها أم أنور لا تتفاعل مع الأمر إلا بروائح البخور الرخيصة..

إلا أن شيئًا ما يحدث...

فالأستاذ ماهر يبدو عليه الإعياء يومًا بعد يوم.. فبعدما كان يشكو من الصداع، هو الآن يأتيني كل يوم ليشكو من أمر جديد.. فتارة يشكو من وجع المعدة، وتارة يشكو من القولون، وتارة يعاوده الصداع.. سبعة أيام متواصلة حتى ينقطع عن العطارة.. يبدو أنه قد فضل الطبيب.. هكذا المتعلمون.. لا يثقون في أعشابنا؛ وإن أظهروا لنا العكس..

– خير يا أ/ ماهر.. عملت إيه عند الدكتور؟

قالها الحاج سيد، وكأنما يتعمد أن يقولها بصوته العالي كي يقرع آذاني بها...

– مفيش.. قال لي ماعندكش حاجة.

– طب وأنت حاسس بإيه دلوقتي؟

– بطني بتتقطع من التعب يا حاج سيد.

خرجت من المحل بعدما شعرت أن الطبيب خذله ليعود لي مرة أخرى فقلت له: الأعشاب دي هتريحلك معدتك يا أ/ماهر، وماتاكلش من برا.

- ولا من برا ولا من جوا يا جعفر.. هوَّ المرض مخليني عارف آكل حاجة؟!! دا حتى الدكتور بيقولي إن عندي تعب نفسي..

"نفسي!!".. لم تمر الكلمة على أذني مر الكرام.. فنحن المشعوذون لنا تراجمنا الخاصة لكلمة "نفسي" عندما يقولها الطبيب.. إذن؛ فهذا الرجل "ملبوس".. آه.. هل فعلتها أنا دون أن أدري؟! أجل.. إن أ/ ماهر يخرج كل يوم في نفس توقيت رش المياه الذي تقوم به أم عماد.. وهو - بطبيعة الحال - يمر على بيت أم أنور في طريقه للعمل.. آه.. لقد خانني شيطاني اللعين وفعلها بذلك الرجل المسكين..

"لا بد أن أفعل شيئًا".. حدثت بها نفسي طيلة الليلة.. لم أنم طوال الليل؛ لأفكر بهذا المأزق الذي وضعني فيه شيطاني، بمعاونة شيطان أم عماد..

جالت بذهني كل الأفكار حتى أعين ذلك الرجل المسكين.. تُرى هل أعطيه الدواء في صورة أعشاب كالعادة؟!.. ولكن الدواء هذه المرة قد يكشف أمري.. أنا أعلم تركيبه جيدًا.. هذا العشب الذي يُخرج الأرواح الشريرة، لا بد له من أن يجعل المريض ينبسّ بحقائق لم يكن أحد يعرفها.. وربما تمتم أ/

ماهر بحقيقة الأمر، وفُضحت أنا على مرأى ومسمع من الحي كله.. لا.. ليس الآن وقت أن يعرفوا.. سيكون خطأ كبيرًا..

إذن.. أتركه ليلقى مصيره.. وما الذي وضعه في هذا المأزق غير أنه ساذج لا يأخذ حذره؟.. لا لا.. أنا الذي فعلتها بمعاونة تلك العجوز الشريرة.. لن أتركها تنام في بيتها هانئة هي وغريمتها، وهذا المسكين يتضور ألمًا؛ حتى وإن كان ساذجًا مثلهم.. الأمر محير بحق...

ومع نور الصباح.. بينما تتسلل أشعة الشمس على استحياء تتلمس طريقها في حي المغربلين، كانت الفكرة كانت قد تبلورت في ذهني...

"و لم لا.. أجل.. سأفعلها وإن كلفني الأمر الكثير.. سأنتقم منهم جميعًا، وأنقذ ذلك الرجل المسكين".

فتحت أبواب المحل.. أخذت في رص الأشولة خارج المحل كعادتي.. الكل نيام لا يزالون.. لم يخرج أحد من الحي بعد.. سأطهِّركم وأطهر نفسي من كل الأرواح الشريرة التي تحوم بنا...

أحضرت وعاء البخور الكبير، ووضعت فيه البخور الهندي باهظ الثمن، حلَّيته بأوراق الليمون المجفف.. ثم أشعلت النار فيهما.. انبعثت الرائحة كعادتها، ولكن قبل أن تصل إلى

البيوت.. كنت قد شبَّعتها بالعشب الذي سيداوي أ/ ماهر.. أجل.. سيطيب الرجل الآن.. سيهذي بأشياء كثيرة.. ربما منها أنني الذي وضعت له السحر في الطريق.. أجل.. سيسمعه الجمع وهو يقول ذلك.. ولكن لن يلتفت إليه أحد.. أتدرون لم؟.. لأنهم جميعًا سيهذون مثله.. ستخرج من هذا الحي كل أسراره الدفينة طيلة سنوات على لسان سكانه..

ستعترف أم عماد أمام الجميع بأنها كانت تدبر المكائد لأم أنور.. وستقول هند للأستاذ ماهر أمام كل الناس إنها تحبه.. وسيروي عم سيد كيف كان يسرق بيوتهم في شبابه.. سيندهش الجميع.. ولكنهم لن يتذكروا شيئًا واحدًا.. سيقضون يومًا كاملًا من الهذيان الممزوج بالحقيقة.. سيتطهر الجميع مع كل نسمة يتنفسونها من رائحة أعشابي.. سأفعل بهم كل هذا دون أن يشعروا.. وسيأتون غدًا كصفحات بيضاء لينعتوني مرة أخرى بصفات الصبية.. دون أن يعرفوا كم أنا عظيم...

خداع بصري

أحمد عبد المعز السقا

في غير أوقات ثابتة - وكأنما يتفق للراكبة - يكون (المترو) خاليًا.

كان حدثًا حتى أني استغربت ألوان المقاعد الرمادية وهي خاوية.

لا أدري لم انتابتني وحشة، ثم ابتسمت لأن الجو أوحى بفيلم رعب هوليودي مبتذل.

لم تطل وحشتي المبتسمة؛ فقد رأيت أمًّا قد يجعل وصفها أسهل أن أقول أنها مصرية.

وعلى ذراعها طفل أكد لي أن الله يبدع تصوير أحبابه.

جلست جواري على الرغم من، أو بسبب حالة الانقراض المحيطة.

كل هذا بطرف عيني رأيت.

أما اتجاه وجهي، وانثناء عنقي كانا يمثلان في مسرحية "عبث في الهاتف".

حولت بدره الذي فوق عنقه إليّ - ثم باقتحام لا أحبه - أشارت إلى يدي.

ليس هاتفي لعبة.

التفت، نظر، تطلّع، مد يديه الشريفتين، أنَّ في ملائكية مدللة أنستني كل ضيق.

ضعفت، فأعطيته ما بيدي.

أحسست فجأة أني تزوَّجتها وأنجبته.

ساعد على ذلك أني أعزب، وأني في (مترو) مهجور.

أكدت هي خاطري بأن حملته إليّ برفق واثق وأخذت تشير له بلعبته – أو هاتفي – حتى يتشاغل.

غبت...

بعثت وحيدًا لأجد خمسين محطة قد فاتتني، وعلى فخذي دمية لقرد صغير مشوّه.

الصراع الأبدي بين الكلب والقطة

أحمد عبد المنعم رمضان

منذ أيام بعيدة.. كنت أستيقظ مبكرًا، ألبس ملابسي وأنا شبه نائم، آخذ الـــ(سندوتشات)، كنت أنطقها (شندوشات) بجينها، آخذها وآخذ شنطة شبه فارغة، وأقف أمام باب عمارتنا منتظرًا الأتوبيس، حاملًا إياي إلى مدرستنا، لم تكن بعيدة عن البيت. كانت واسعة، سماؤها مشرقة وريحها طيبة، كانت رائحة البراءة تنشع من بين جدرانها، نذهب إلى الفصول، تدخل إلينا المدرِّسة، وكانت دائمًا مدرِّسة وليست مدرسًا، وتعطينا دروسنا الطفولية عن أشكال الحروف الأبجدية وكيفية نطقها، وعن الأرقام وكيف أن الرقم واحد يسبق الرقم اثنين، وأن الرقم اثنين هو الشوكة ذات السنتين، أما الثلاثة فهي تحمل ثلاث أسنان، وكانت الحصص الدراسية ما هي إلا بعض الحكايات التي يظن المدرسون السُّذّج أن لها من الدلالة ما قد يعلّم الأطفال أي شيء خاص بالحياة، لا أذكر من تلك الحكايات التي حكيت لنا داخل جدران ذلك الفصل العتيق، سوى حكايتين؛ هما حكاية الثعلب المكار، وحكاية العداوة ما بين القطة والكلب، وكيف أن الكلب كلما رأى تلك القطة، تفتحت عيناه وانتفضت شرايينه مطلقًا نباحه الشهير بـــ(الهوهوة)، فتجرى القطة في فزع شديد مطلقة ما يدعى (النونوة)...

وبالرغم من أن كل الحيوانات تطارد كل الحيوانات؛ إلا أن صراع الكلب والقطة مختلف تمامًا؛ حيث إن الكلب لا يطارد القطة كي يأكلها، ولذلك فهي قصة مثيرة للانتباه.

ولسبب غير معلوم.. كان تعاطفي الدائم مع الكلب، رغم أنه في وجهة نظري القاصرة جدًّا - في ذلك الوقت - هو المعتدي الأثيم الذي لا يلبث أن يرى القطة - تلك المخلوقة الرقيقة الوديعة - حتى يجري وراءها في كل مكان.. ولم أكن أعلم؛ هل هناك ثمة علاقة بين تلك القصة وبين ذلك الثعلب المكار، أم أن كلًّا منهما يعيش داخل قصته منفصلًا عن الآخر.

قد يكون سبب كرهي للقطط تلك الحادثة التي وقعت لي وأنا طفل لم تتبدل أسناني بعد، ذلك الغدر الذي تتصف به القطط، والذي تحققت منه عن تجربة.. فقد كنت في بيت إحدى قريباتنا، وكانت مذهلة الجمال، حتى إني كنت أتمنى الزواج منها، فكنت أظنها لا تكبر، وكانت رقيقة جدًّا تحمل على يديها قطة تبدو جميلة، بنية اللون وناعمة الملمس.. ولما علمت من مدرستنا عن وداعة ورقة ذلك المخلوق، قررت أن ألعب معها.. واستأذنت قريبتي الحسناء أن ألعب مع قطتها، فوافقت وأومأت لي برأسها، فاقتربت من القطة حانيًا حتى آخذها ما بين يدي لنلعب معًا.. فما إن اقتربت منها حتى وجدتها قد تحفزت وقفزت من مكانها وأطلقت أرجلها الأمامية في جسدي الهزيل وقتها، وخربشت إياي تلك الخربشات التي لا تصدر سوى من ذلك المخلوق السخيف.. وما زالت تلك

الخربشات تاركة أثرًا في جسدي إلى يومنا هذا.. تذكّرني بقريبتي تلك، كما تذكرني أن أخشى غدر القطط ما حييت.

ولكنني قررت أن أنتقم، وكان انتقامي الطفولي شديدًا جدًّا من كل بني جنسها - أقصد القطط، فقد كنت أقف ليلًا في شرفة منزلي القابع في الدور الأول، وأنتظر حتى أرى أو أسمع أو أشم رائحة أي قطة في الشارع، عندها أبدأ في إطلاق أصوات شبيهة بنباح الكلاب، وأضحك جدًّا وأستمتع وأنا أنظر لتلك القطط الملعونة وهي تجري خوفًا ورهبة من مجرد بعض (الهوهوات) المصطنعة.

وتمر بعض سنين...

أصبحت دروسنا أكثر تعقيدًا؛ عن الفيزياء والكيمياء، وما قاله نيوتن، وما فعلته مدام كوري، وتاريخ الفراعنة، والفتوح الإسلامية، وعن شيء يدعى فلسطين، وحساب المثلثات والجبر، ولكنهم لم ينتبهوا أبدًا إلى هاتين القصتين.. لم يكمل لنا أحد تفسير قصة الثعلب المكار، أو قصة الصراع بين الكلب والقطة.. فهل كان هناك ثمة خلاف بينهما مثلًا؟ هل قامت القطة بقتل أحد أجداد الكلب مثلًا؟ ولكن كيف لتلك القطة الضعيفة أن تقتل ذلك المخلوق الضخم المخيف كثيف الشعر.. هل - مثلًا - قام أحد أفراد عائلتها بقتل كلب في سالف الأزمان؟ هل اختلفا على سطح سفينة نوح كما في بعض القصص؟

وبدأت أسأل عن أصول عائلات الحيوانات؛ حتى أبلغني أحدهم أن النمر هو أحد أقارب القطة، وهنا بدأت أتبين الحكاية، يبدو أن ذلك النمر هو من صنع تلك الصنعة بأحد أجداد الكلب.. لم أتوصل إلى أي تفاصيل تاريخية، ولكن خلاصة القول، إن القطة غدرت بالكلب كعادتها، وأن الكلب لم ينس لها فعلتها.. ولكن القطة - وكما كان ظني بها دائمًا - كانت خبيثة جدًّا.. أكثر مما أتصور، ولذلك فقد خرجت من بين كل ذلك بتعاطف واسع وشديد من جميع حيوانات الغابة وساداتها، ومن قاطني الصحارى، ومن ساكني المدن، فأصبحنا نحن المتمدنين نستخدم كلمة "القطة"، وقلما ما نستخدم كلمة "القط"، فهي تلك الأنثى الضعيفة الرقيقة المغلوبة على أمرها، التي تجري كلما سمعت نباح الكلاب.. وهو ذلك الشرس القبيح الذي يجري وراء القطة كلما رآها.

وهو بصفته كلبًا، فهو لا يجيد سوى (الهوهوة).. عندما تراه وهو يجري و(يهوهو) وراء القطة، وهى تصرخ و(تنونو)، تظن أنه بالتأكيد سيرديها قتيلة، ولكنه نادرًا ما يلحق بها أصلًا، وإن حدث.. تكون النتيجة مجرد بعض (العضّات) في جنباتها، والتي لا تؤثر فيها إلا بزيادة تعاطفنا، أو تعاطفهم معها.

وتمر بعض سنين...

وبالرغم من كبر سني الآن، وعبور الأيام بي إلى ما بعد الطفولة والمراهقة؛ إلا أنني ما زلت أحمل بداخلي ذلك الطفل

البريء الذي يسعد عندما يرى الطائرات في السماء، الطفل الذي لا يعبأ بأي شيء سوى صراع الكلب والقطة وصعوبة فهمه.. كان يومًا مطيرًا - ذلك اليوم الذي قررت فيه ألا أذهب إلى كليتي، وأن أجلس في بيتنا، أتمتع بدفء السرير تحت حرارة البطانية.. أغلقت الشبابيك وغطست تحت الأغطية مشاهدًا التليفزيون، وكانت على شاشته حلقة من حلقات (توم وجيري).. وبدأت أتذكر أولى مشاهداتي لتلك الحلقات العتيقة، ودفعتني الذكريات إلى ذكرياتي مع فهم صراع الكلب والقطة، والذي نسيته منذ أزمان.. كانت حلقة (توم وجيري) مسلية إلى حد نسيان البرد والتوقف عن (التكتكة).. تذكرت مدى اغتياظي من ذلك المدعو (توم)، والعجرفة التي يعيش فيها، ومدى فرحتي كلما أوقعه (جيري) في شر أعماله، ولكني كنت أغتاظ جدًّا من تجاهل وتهميش دور الكلب في تلك الحلقات.

بدأت عيني تسرح بعيدًا عن التليفزيون، وبدأ جسدي يسترخي أكثر على السرير، وبدأت أتذكر زيارتي منذ سنوات ليست ببعيدة لأحد أصدقائي.. كان - على عكس معظم أصدقائي - ممن يطلقون عليهم علية القوم.. هؤلاء المرفهين المستفزِّين.. وأثناء تواجدي بمنزله أعلمني أنه يربي في بيته كلبًا فائق الجمال، فسألته أن يريني إياه.. فجاءني بمخلوق أبيض صغير مشعر، لم أتعرف عليه في البداية.. سألته: "ما هذا؟".. أجابني بأنه كلبه "اللولو".. مخلوق مخنث يدَّعي أنه كلب..

أهكذا أصبحت الكلاب الآن؟ أين الشراسة والقوة المعهودة؟ الغريب في الأمر أن الكلب لا يزال (يهوهو).. فحتى بعد سحب جميع صفاته الكلابية؛ فهو لا يزال ينبح، ولا أحد يفهم.. (هو بيهوهو على إيه؟!).

وتمر بعض سنين...

وجاء ذلك اليوم الذي كنت ذاهبًا فيه إلى حيث كليتي الكئيبة؛ حيث رأيت المشهد الذي قد يعتبره البعض مشهد النهاية.. مشهد كلب يقف بجوار قطة.. جنبًا إلى جنب.. كتفًا إلى كتف.. لا يحمل في عينيه أي شرارة غضب.. لا يطلق أي نباح يعلمنا أنه قادم.. لا يتحرك من مكانه.. كأنه ميت.. لا تنبض شرايينه ولا تتحرك شعيراته.. لا يحاول الاقتراب منها أو المساس بها.. جاء اليوم الذي أرى فيه الكلب والقطة يقفان متجاورين في سلام وأمان، بعدما تخلى الكلب عن كل صفاته الذكورية.. وتخلت القطة عن أنوثتها.. نظرت إلى القطة؛ فوجدت أن مخالبها أصبحت أكثر طولًا، ويبدو أنها أصبحت أكثر (خربشة) من ذي قبل.. لقد تغيرت القطط، كما تغيرت الكلاب.. أصبحت كلما أحاول أن أبعد أية قطة عن طريقي، أو (أهشها) بعيدًا عن طعامي، أجدها تهجم عليَّ بدلًا من أن تهرب من أمامي؟ أما عن الثعلب، فما زلت لا أعرف علاقته بالقصة تلك.

وتمر بعض سنين..

وأنا الآن في شرفة منزلي.. الجو أصابته برودة شديدة، ولكني لا أشعر بها.. الليل قد خيم والظلام حالك.. الصمت المهيب مسيطر على الأجواء.. أنا الآن في شرفة منزلي.. لا أرى القطة.. ولكني أشعر بوجودها.. لا أرى الكلب.. ولكني أسمع نباحه من بعيد.. لا أرى أين هو.. لا أعلم أين هو.. ولكنه بالتأكيد.. موجود في مكان ما.

أسوديم

أحمد محمد غريب

استيقظت على برودة أشعة الظلام الأولى تلمس وجهها، نهضت من سريرها تتثاءب في نشاط..

رفعت مرآتها الصغيرة، تأملت فيها أولًا غرفتها المحببة، هي لا تتمنى من الحياة سوى غرفة جميلة مثل تلك..

خلعت روبها الحريري، وتوجهت بنظرها في لهفة إلى قلبها، تحت جلدها الشفاف بدا واضحًا ينبض بين عظام قفصها الصدري، وعلى صدرها تحت قلادتها تحمل اسمها..

فجأة، ورغمًا عنها، وجدت نفسها خارج المترل..

نظرت حولها برهبة، وجدتهم حولها في كل مكان، هي تعرفهم، انتفض قلبها في صدرها، أطلقت لساقيها العنا، وقلبها يكاد يفر من بين أضلعها..

رفعت مرآتها لتجدهم يجرون خلفها، بدت قلوبهم الرمادية المتحجرة واضحة في المرآة..

انتفض قلبها أكثر وأكثر، وأسرعت ساقاها أكثر وأكثر، لا يجب أن يلمسها أصحاب القلوب المتحجرة، هي تعرف ذلك..

ألقت نظرة خاطفة خلفها.. فلم تجد أحدًا وراءها..

ولكن.. لماذا لا تشعر بنبضات قلبها؟! نظرت ناحيته فلم تجده، ربما انتفض أكثر من الازم..

لا بد أن تبكي الآن، ولكنها لم تفعل، انطلقت تبحث عن قلبها، وتبحث وتبحث، سمعت همهمات من خلفها، نظرت في مرآتها، هم يقتربون منها، الأنفاس تشتعل والأيادي تمتد، وتريد أن تبكي، لا تستطيع، تصرخ، تصرخ...

تصرررررررررررخ...

وفجأة تنتفض من فوق السرير، "كابوس فظيع" هكذا دار في ذهنها، تبحث عن مرآتها، لا تجدها..

فجأة تجد نفسها في الخارج، هم حولها، تجري.. أين مرآتها الآن؟ تنظر خلفها، ما هذا؟! هم يهرولون بعيدًا في الاتجاه المعاكس..

"لماذا تفرون؟".. تجري وراءهم، قلوبهم متحجرة، تحاول أن تصل لأي منهم، تمسك بإحداهن، الضحية تحوَّل جسدها إلى تمثال من حجر..

الجميع قد هرب من حولها الآن..

لماذا لا تشعر بنبضات قلبها؟ تنظر تجاهه بين أضلعها، لا بد أن تشعر بالصدمة، ولكنها لا تفعل، فقلبها يبدو صخريًّا متحجرًا رماديًّا قاتم اللون..

تلمح القلادة على صدرها واسمها مكتوب عليها.. "ميدوسا"...

فؤاد قد يكون صالحاً

أسامة يوسف محمد

كان وحده بداخل غرفته المضاءة بنور خافت، جالسًا على سجادة صلاة مرسوم عليها مسجد الرسول (ص)، تداعب أنامله مسبحة صغيرة ذات لون فيروزي جميل، فتنزلق حباها بنعومة كلما تمتم بكلمة تسبيح أو حمد أو تكبير، وظل على هذا الحال لفترة حتى انتهى من ذكره، فترك المسبحة بجواره على الأرض، ورفع يديه للسماء وقال في صوت خافت خاشع تكاد ألا تسمع منه شيئًا: "يا رب، خشِّع لك سمعي وبصري وكل جوارحي، فارْضَ عني وقوِّ إيماني وصلني بك دائمًا، اللهم اجعلني دائمًا من ذاكريك، وأعنّي على حسن عبادتك، ......".

واستمر في دعائه حتى بلغ مرحلة إيمانية جعلت عينيه تدمعان؛ فسجد لله خشوعًا، واستمر ساجدًا لفترة ليست بالقليلة، نهض بعدها وسار يجرجر أقدامه كأنها تأبى أن تفارق سجادة الصلاة، واتجه لسريره فاعتلاه، ثم تمدد في وضع النوم وأغمض عينيه وعلى شفتيه ابتسامة رضا وسعادة.

قطع السكون الذي كان فارضًا نفسه على المكان صوت عالٍ يصيح قائلًا: "Stop"، ثم أضيئت عدة كشافات ضخمة في نفس اللحظة ليعم الضوء الباهر المكان بدلًا من الضوء

الخافت، فأغمض الحاضرين أعينهم للحظات كي يعتادوا على الوضع الجديد، ثم فتحوها وهم يحطمون كفوف أيديهم تصفيقًا للممثل البارع على أدائه الدور الذي طُلب منه بعبقرية يحسد عليها، وبصدق لا يضاهى، وظهر المخرج في منتصف القاعة سعيدًا بنفسه صائحًا في الحضور: "أنا اللي قولت إن فؤاد صالح هو الوحيد اللي ينفع للدور ده، ده عبقري، ده فنان، قوم يا فنان علشان نحتفل معاك بإنجازنا". لكنه لم يكد ينهي عبارته حتى دخل عليه مساعده ممسكًا بهاتف خلوي وقال له: "الأستاذة ليلى عايزة حضرتك"؛ فتناول الجهاز من بين أصابعه في خفة من أثر السعادة البادية على كل شبر من وجهه، وخرج من القاعة مبتعدًا عن الضوضاء ، وقال متحدثًا إلى بطلة الفيلم التي كانت متغيبة عن موقع التصوير: "الله يبارك فيك يا جميل، ...، آه، آه إحنا كده خلصنا المشهد الأخير من الفيلم، لسه بس الكام مشهد اللي أنت فيهم قصاد فؤاد واللي اتأجلوا لآخر يوم تصوير علشان تعبك، ...، أنت مش كويسة الحمد لله؟ طاب جميل جدًّا، يبقى بكرة نصورهم، ...، متخافيش الرقابة وافقت على المشهد إياه، ...، سيبك منهم دول عالم خُلل، ...، قال خايفين من خدش حياء الناس، ...، آه ده فؤش عمل المشهد الأخير بتاع التوبة بعبقرية، ...، آه ده ممثل فظيـــ.."، قاطعه مساعده الذي جاءه ركضًا من بعيد وهو يصيح: "الحقنا يا أستاذ، الحقنا"..

- في إيه يا ابني؟

- الأستاذ فؤاد مبينطقش من ساعة ما وقفنا تصوير، والمصور بيقول إنه مات.

- مات إزاي يا ابني أنت اهبلت؟

- يا أستاذ والله زي ما بقولك كده، مات.

ثم انطلق الفتى في نشيج طويل وافترش الأرض باكيًا، بينما كان المخرج قد ألقى بالهاتف بعيدًا واندفع تجاه السرير الذي رقد عليه فؤاد صالح دون حراك.

* * *

بداخل مقهى على الطراز الحديث مثل المقاهي التي تملأ مراكز التسوق الكبيرة، تراصَّت عدة مقاعد حول طاولة عليها عدة مشروبات، وجاورت الطاولة عدة نارجيلات، أطرافها في أفواه شباب لم يتعدوا العشرين من عمرهم، اختلفت كلياتهم التي يدرسون فيها، وإن اجتمعوا على ترك المحاضرات والجلوس على مقاعد هذا المكان الذي يناسب أهواءهم، يشاهدون قنوات الأغاني على تلفاز كبير الحجم معلق على الحائط، وذلك بالطبع لغرض غير بريء، وحين يستمتعون بألعاب الورق المختلفة، ودائمًا تكون حواراتهم أتفه من حوارات طفلين في الصف الأول الابتدائي، لا يتحدث عنها سواهم، مثلما هو حالهم الآن، فلقد قال أحدهم بينما هو يلقي بورقة لعب على الطاولة: "عرفتم اللي حصل لفؤاد صالح؟"

- لأ..

- حصله إيه؟

- آه أنا عارف، بيقولك يا سيدي مات وهو بيمثل مشهد في فيلمه الأخير، بس مات وهو ساجد.

- لا يا عم، أنا اللي وصلني إنه مات بعد ما خلص المشهد ده.

- وحتى ولو مات ساجد، ما هو كان بيمثل، كده كده هيتعذب.

- بس بردو، مات ساجد وهيُبعث ساجد.

- بردو لأ، مهما كان كان بيمثل، ده بيقولك إنه بعدها كان هيـــ...

قطع حديثه بغتة مطلقًا سبة نابية، وصاح في وجه الذي يقابله: "يا بني آدم العب عدل، بلاش اللعب الغبي ده، أنت طالب ٥ لّمات ليه وأنت مش معاك يجيب ٣ أصلًا"..

- سيبك يا عم، أصله لسه بيتعلم، والدور كده كده شكله هيفكس كمان شوية، كمل بس فؤاد كان هيعمل إيه؟

- ولما الدور هيفكس بتلعبوا ليه من الأول؟

وأتبع جملته بإلقائه الورق الذي كان في يديه على الطاولة فتبعه الآخرون، فاصطدمت يد أحدهم بكوب كان بالكاد على حافة الطاولة؛ فوقع على الأرض وتهشم لمئات القطع، وبعدها

بلحظات جاءهم مدير المكان قائلًا: "ولا يهمكم، ماحصلش حاجة، بس بعد إذنكم هنضيف تمنه على الحساب".

- خلاص، أوك.

فصاح المدير في شاب قصير قائلًا: "علي، تعالَ نَضَّف هنا"، ثم عاد إلى حيث كان، وواصل الشباب حديثهم...

- ركز بعد كده يا معتز والنبي.

- يا عم خلاص ما أنا هدفع، كمل يا كريم، كنت بتقول فؤاد كان هيعمل إيه؟

- بيقولك كان تاني يوم هيمثل مشهد مش ولا بد مع ليلى.

- ليلى! ليلى مين؟

- ليلى يا عم، البت بتاعة الإعلانات اللي مثلت لها فيلمين فبقت نجمة الشاشة الأولى والفنانة الفظيعة.

- يا لهوي، حد يموت قبل ما يصور المشهد ده؟!

- أنت مبتحسش يا جدع أنت، ده مات، مااااات وزمانه بيتحاسب.

خيَّم الصمت عليهم جميعًا، وفي عين كل منهم نظرة مختلفة عن الآخر، فمنهم من كان ينظر في الفراغ متألمًا، ومنهم من كان ينظر نظرة خاوية من أي شيء، ومنهم من كان يفكر في الموضوع التالي الذي سيسلون به أنفسهم حتى يحين موعد

خروج الطلبة من كليته فيعود لمترله ليأكل ويستريح، وظل الصمت مطبقًا لدقائق، ولكن شابه صوت لهاث الفتى الذي كان لا زال ينظف أرضية المكان ويسترق السمع لزبائن المقهى.

***

ملّت الأم من انتظار ولدها كي تحضر له طعام الغداء الذي أصبح عشاء، فهو كالعادة قد تأخر في عمله البعيد عن المترل، ويضطر بعدها لخوض حرب في المواصلات العامة حتى يصل لبيته، فيتحول موعد عودته من الخامسة عصرًا للسابعة أو الثامنة مساء، فذهبت الأم لتطمئن على ابنها الصغير الذي نام هربًا من استذكار دروسه، ولكنها لا تقدر على إيقاظه فهي تجد هذا الأمر تصرفًا لا إنسانيًّا، ثم همت أن تذهب لابنتها في المترل المجاور لها لكنها تذكرت أنها نائمة في هذه اللحظة، فتوجهت لغرفة ابنها الأكبر، وقامت بتشغيل التلفاز على قناة دينية اعتادت على أن تتابع برامجها منذ أن قام ابنها بالاشتراك في "وصلة الدش"؛ منذ كأس العالم الأخيرة، كان أحد شيوخ القناة يتحدث بعصبية عن موضوع ما، ثم قطع حديثه لاستقبال اتصالات هاتفية، وكانت أول المتصلين امرأة تسأل عن موقف الممثل الذي قد توفي منذ أيام أثناء تمثيله مشهدًا دينيًّا يصلي فيه ويدعو ربه بالرحمة، قاطعها الشيخ قائلًا – بعد حمد الله والصلاة على رسوله: "الله وحده هو الذي يعلم موقف هذا الرجل، فالله هو الذي سيحاسبه، وبيد الله أن يدخله جنة الخلد برحمته،

وبيده أن يدخله نار جهنم نعوذ بالله منها، ولكنني أستطيع أن أقول إن هذا الممثل في النار، فهو قد خالف حدود الله وقام بالتمثيل، وارتكب الزنى في مشاهد سابقة في أفلام سابقة، وكما قلتِ أيتها الأخت العزيزة؛ فإنه كان يمثل أنه يعبد الله، لا يعبده حق العبادة، وفي هذه الحالة ..."، قطع على الأم استماعها لحديث الشيخ دخول ابنها من الخارج، فقامت لتعد له طعامه كي يتناوله بسرعة قبل أن ينام، بينما دخل الابن غرفته ليبدل ملابسه، لكن حديث الشيخ جذب انتباهه؛ فجلس يستمع له وهو يقول: "ومن هذا الدرس نتعلم أننا يجب أن نسارع بالتوبة والمغفرة قبل أن يأتينا الموت بغتة ونتندم على ما فاتنا، فعُد أيها اللاهي، عد أيها الفاسد إلى رحاب الله وإلى محيط رحمته الذي وسع كل شيء قبل أن تندم وتحاول العودة فيكون قد فات الأوان وتُعذب في نار جهنم، ..".

تضجر علي من حديث الشيخ المنفِّر، الذي ذكّره بحديث مديره في المقهى الذي يعمل به؛ فهم أن يغير القناة فوجد أمه خلفه تؤنبه على عدم تغيير ملابسه، ثم قالت مشيرة إلى التلفاز بعد أن وضعت صحن الطعام على الأرض: "مش بالذمة ممكن يكون تاب فعلًا قبل ما يموت، ده بيقولوا الدمع كان نازل من عينه وهو بيصلي في الفيلم كأنه بجد، محدش بيعمل كده غير المؤمن الحق".. كاد أن يقول لها ما سمعه من الشباب في المقهى عن المشهد الذي كان سيصوره، لكنه خجل فصمت وهز كتفيه علامة على الجهل بما تقول، وغير القناة الدينية وقرر أن

يستمع لقناة الأفلام أثناء تناوله الطعام، لكنه لسوء حظه وجد أن القناة تذيع برنامجًا تترحم به على روح فقيد السينما العربية فؤاد صالح، وأتت بطاقم عمل فيلمه الأخير، وعنهم كان المخرج يتكلم باكيًا عن أهمية الفقيد، وعن عبقريته في التمثيل، وطلب المخرج من القناة أن تذيع المشهد الأخير الذي مثله الراحل ليدلل على أن السجود والبكاء كانا من قلبه ليس تمثيلًا، وبرهن بأن وجهه كان مبيضًا ساعة الوفاة، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة جميلة، إلى هنا كان علي قد طفح به الكيل، فألقى بجهاز تحكم التلفاز بعيدًا، وصاح في غضب: "أنا مال أمي إن كان فؤاد صالح ولا مش صالح".

جوه دا بتاعنا

إسلام البدري

تبيَّنتُ أنني أجلس منذ فترة ليست بالقليلة في حديقة الأزهر عندما نظرت في الساعة.. إنها الخامسة عصرًا.. لا أعلم كيف مر كل هذا الوقت؛ فمنذ أن وصلت إلى هنا وأنا أنظر، لا إلى الأزهار الملونة والطبيعة الخضراء الساحرة.. ولكن إلى هذه البيوت القديمة القميئة التي تشوه جمال الطبيعة في الحديقة.

بحثت عيناي جاهدة عن هذا البيت الأسود الصغير.. لكن بالتأكيد لم أجده.. اختفى وسط زخم الزحام.. كما اختفى صاحبه الأسطى منصور وسط الناس..

تابعت السير.. ولم أبعد عيني عن بيوت الدرب الأحمر.. لطالما بحثت عن نفسي في هذا الدرب.. لكنني لم أجدها حتى الآن.. فبين أم صارخة دائمًا.. وكومة أطفال يدعونهم إخوتي.. وأب أنزلني لأعمل معه.. كانت هذه اختياراتي.. وبين بيت قديم أسود.. وورشة أبي الصمَّاء.. وشوارع ضيقة.. وحوارٍ قذرة.. كانت تجري لحظات حياتي.. منذ أن أدركت معنى الحياة لم أستطع منع نفسي من الهروب مع نفسي كما فعلت اليوم؛ حتى لا يقتلني شعوري بعدم الحياة..

آتي هنا لأحلق.. لأنظر إلى واقعي من أعلى.. لأستنشق نسمات الزهو.. لأشعر بالاستعلاء على هذا الواقع.. أتذكّر نظرات الإعجاب التي أجدها في عيون الأثرياء من زبائن الورشة؛ فأفخر بنفسي.. لكنني أصطدم بحقيقة وجودي دائمًا في ذيل سلسلة هؤلاء القوم الذين اجتمع عندهم.. كل ما أحلم به.

وتذكّرت هذه الفتاة الجميلة التي جاءت مع والدها الثري عندي في ورشة الأرابيسك؛ ليشتريا بعض مشغولاتي الرائعة التي اشتهرت بها، وعندما سألت نفسي وأنا أنظر في عينيها المرسومتين كأبدع ما يكون، وأنا أقول: "يا ترى لو اتقدمتلك تقبليني؟".. وقتها وكزني الأسطى منصور وهو يقول: "بص على أدّك".. لكنني لم أبعد نظري عنها..

خطف نظراتي هذا السرب الطائر من الحمام وهو يعبر أمام قرص الشمس المتلألئ الذي أخفى ألوان كل حمامة في هذا السرب وصبغهم جميعًا بلون أسود يقطع أشعته الذهبية بأجنحته المرفرفة صانعًا ظلالًا تحط رحالها على أرض وجهي الناظر إليه.. تذكرت نفسي عندما كنت في العاشرة أصعد فوق عروق الخشب؛ لأقف أعلى أعشاش الحمام.. ممسكًا بالعلم الأحمر.. ألوّح به فيطير الحمام في السماء.. ويطير قلبي الصغير فرحًا معه.. فلم تكن الحياة قد حفرت في قلبي خطوطها الصمّاء بعد.

حطَّت الحمائم على أعشاشها؛ فاتصلت أشعة الشمس.. لا يقطعها قاطع.. ولم أعد أرى في السماء سوى هذا الصقر الذي ألبسته أشعة الشمس حلة ذهبية.. تابعته متعجبًا.. فقد اقترب كثيرًا من الأرض.. ثم ألقى بنفسه وسط أغصان إحدى الأشجار.. ليحرم نفسه من لونه الذهبي الذي اكتسبه من نور الشمس.

لم يسبق لي أن رأيت صقرًا يقف قريبًا من الأرض هكذا.. وشعرت بأنه منته.. لن يطير ثانية بعد أن خَفُت بريق عينيه وخفض رأسه.. وكأنه مستسلم لوضعه هذا.. ولا أعلم لماذا أحسست أن بيني وبين وهذا الصقر قاسمًا مشتركًا..

تابعت السير، ولم أمنع عيني من النظر إلى بيوت دربي.. عندما اخترقت أذني هذه الأصوات...

- أنا بعشق الحاجات القديمة.

- وأنا كمان..

إنهما زوج من العشاق الجدد.. يتحدثان عن الأشياء القديمة عندما رأيا بيوت الدرب الأحمر المتهالكة.. وماذا يعرفون عن الأشياء القديمة سوى مشاهدتها من بعيد.. كثيرًا ما كانت هذه الكلمات تتردد أمامي على لسان زوار الدرب الأحمر الأثرياء.. فألعن نفسي وأندبها وأتساءل.. لماذا لم أكن مثل هؤلاء

الأشخاص الذين يملكون الجديد الثمين.. فيحبون القديم الرخيص من باب اكتمال حصولهم على كل شيء.. حتى الحقير مما يمتلكه المعدمون.

أخذتُ نفسًا عميقًا وزفرته عندما وجدت صوته يتردد في أذني...

- يا ابني الناس دول مش عايشين.. معاهم فلوس آه.. لكن عمر ما فلوسهم تقدر تشتري ربع ضحكه من اللي بنضحْكهم..

الأسطى منصور.. لطالما كان مبتسمًا فرحًا.. رغم أنه أكثرنا فقرًا بكومة الأطفال المعلقة في رقبته.. ولا يكاد يكفيهم طعامًا.

وتتابعت كلماته التي دائمًا ما تجد مكانًا تختفي فيه في عقلي وتخرج وقتما تشاء.. لأجدني أتذكرها دون أن أشعر...

- حد في البهوات بتوعك دول ضحك أد ما ضحكنا لمًّا شمّرنا هدومنا في عز المطرة.. ورمينا الواد سيكا في بركة المية.. واتزروطنا طين وهوا قاعد يصوّت؟!

فتذكرت منظر سيكا وهو يصرخ بين أيديهم ويقول: لأ بخاف.. بخاف يا أسطى.. بخاف.. معُدتش أقول مبخافش..

فابتسمت غصبًا عني.. وصوته لم يتركني...

- ولّا واحنا قاعدين نرازي في بعض على القهوة، وصوتنا بيجلجل من الضحك في الحارة، وقشاط الطاولة بيرن، وأنا بغلبكوا كلكو، ووشوشكو هتولّع من الغيظ، ولّا، ولّا، ولّا...

ياد الناس دي منظر بس.. إحنا نعملّهم حاجات يفرحوا بيها.. نضَحَّكهم بخفة دمّنا.. أما من جوه دول خربانين.. جوه ده بتاعنا يا مغفل...

دائمًا ما أردت أن أقول له إنني لست مغفلًا.. وأدلّتي على ذلك تصرخ في وجهي أنا وأمي وإخوتي المشردين.. وبيتي الأسود القميء.. وحياتي الفقيرة.. وغيرها الكثير... لكن ضحكاته وإقباله على الحياة تكون ردًّا كافيًا لدحض أي دليل مهما بلغت قوته؛ فهو نفسه أكبر دليل على أنني أنا المغفل..

وبعد أربع ساعات كستني فيها ظلال اليأس.. أتت كلمات الأسطى منصور لتصارع يأسي وتحاول إعادتي لحياتي..

ومع دبيب كلماته.. تسللت بعض نسمات الهواء اللطيفة.. تحمل عبير إحدى الأزهار التي تنبض بالحياة لتجد مكانها في قلبي.. أخذت نفسًا عميقًا ملأت صدري به.. وأتبعته بآخر.. ثم آخر.. أتذوق بهذه الأنفاس ما أستطيع تذوقه من ألوان الحياة.. وانتشيت وأنا أنظر إليه على غصن هذه الشجرة

الخضراء حيث وقف.. ونظرت إليه في عينه، وقد لمعت عيناي بروح الحياة من جديد.. فنفض عن نفسه روح الانتهاء التي أعطيته إياها.. ودفعته قدماه وهو يفرد جناحيه.. يضرب بهما موجات اليأس.. ليطير قاصدًا علياءه التي اعتاد عليها.. ليعيد إليّ صورته التي أحببته فيها وهو يعبر أمام قرص الشمس البرتقالي المتلألئ.. وقد برقت عيناه.. واكتسى جسده وجناحاه المنبسطان بحلته الذهبية..

تسارعت خطواتي.. وصورته تجد مكانها في قلبي إلى جانب عبير نسمات الزهور وكلمات صاحب الحياة.. الأسطى منصور.. وسرت في جسدي روح الحياة مرة أخرى.. بعد أن ظننت أنني قد انتهيت.

بدأت الشمس في الغروب.. بينما كنت قد أعدت نظري إلى دربي.. فسرق نظري لونه الأسمر المميَّز وقت الغروب.. إنه بيتي.. وجدته من جديد رغم زحام البيوت حوله.. ومع لحظات توديع الشمس لكبد السماء.. كنت أقف عند بابه.. لأجد الرجل ما زال مبتسمًا يقول لي: مستنِّيك من ساعة ما مشيت.. الأسطى منصور قالها وهو يجذبني لحضنه.. حضن أبي.

طابور لا ينتهي

الطاهرة عماري

كنت أقف في آخر الطابور وطال وقوفي...

أخذت أحاول تضييع الوقت بأية طريقة.. حاولت أن أختلس النظر للصحيفة التي كان يطالعها الرجل الواقف أمامي.. لكن رأسه الضخم حجب عني الرؤية..

زفرت أنفاسي في ضيق، وتنهدت.. حاولت أن أجد طريقة أخرى لتضييع الوقت حتى يحين دوري.. بدأت في عد الناس الواقفين من الأمام.. ثم بدأت العد من الخلف.. لا فائدة.

نظرت لساعة يدي في عصبية.. يبدو كما لو أن العقارب قد أصيبت بالشلل.. مسحت العرق المتصبب من وجهي.. "لماذا لا يتحرك هذا الطابور اللعين؟!!".. كنت على وشك الصراخ.

التفت حولي وأنا أشعر بالضجر.. حاولت أن أشغل نفسي بمتابعة ما يدور في الشارع حولي.. لكن ما من شيء يستحق المشاهدة في منتصف نهار قائظ الحرارة.

وبينما أنظر أمامي لمحتها.. امرأة عجوز.. متكئة على عصا من جذع نخلة.. تمشي بصعوبة بالغة.. ترتدي جلبابًا مهلهلًا، وحذاء مرقعًا..

تختفي ملامح وجهها الحادة وراء التجاعيد المنتشرة فيه، وتغطي رأسها الذي ابيضّ شعره بشال أسود بالٍ بهت لونه..

لا أعرف لما انجذب بصري إليها، ونسيت أمر الطابور الذي أقف فيه منذ ساعة كاملة.

ظللت أتأملها وأتابعها بعيني وهي تنبش الأرض بقدميها النحيفتين، وتتجه إلى مدخل المخبز دون أن تقف في الطابور، وسرعان ما خرجت حاملة في يديها الواهنتين رغيفًا يابسًا قد اسودَّ وجهه.. أدركت على الفور أن الخباز قد أشفق عليها من السن، والمرض، والفقر وأعطاها الرغيف المحترق دون مقابل.

ظللت أتابعها وهي تتقدم ببطء وصعوبة متكئة على جذع النخلة..

وفجأة.. اندفع من الشارع المقابل مجموعة من الأطفال يجرون، ولم يلاحظوا في لهوهم ولعبهم المرأة العجوز وهي تتقدم في بطء، ولم تنتبه هي لهم..

وحتمًا كانت ستحدث الكارثة بين لحظة وأخرى، ويصدم أحدهم العجوز في سيرها البطيء.. وصدق حدسي...

فبينما كان أحد الأطفال يمر بجوار العجوز.. صدم عصاها التي كانت تتكئ عليها، وسقطت العصا، وفقدت العجوز توازنها وسقطت على الأرض، وسقط معها رغيفها اليابس...

كان الطابور قد تحرك في أثناء ذلك واقترب دوري.. لكني ما إن رأيت العجوز تسقط حتى غادرت مكاني على الفور وهرعت لمساعدتها..

التقطت العصا من على الأرض، وساعدتها على الوقوف والاعتماد عليها مرة أخرى، وانحنيت لألتقط لها رغيفها اليابس وأمسح أطرافه من التراب وناولته لها.

لم تقل العجوز كلمة شكر واحدة.. بل انفرجت تجاعيد وجهها تكشف عن مسحة من جمال قديم.. وابتسمت لي عيناها وهي تقول لي: "ربنا يكرمك يا بنتي".

وواصلت طريقها في بطء.. ابتسمت أنا الأخرى، والتفت انظر إلى الطابور لأجد أنني فقدت دوري وأنه ما زال طويلًا كما كان.

وعدت لأقف في نهاية الطابور مرة أخرى، وانتظر دوري من جديد...

متاهة

الوليد محمد جمال

(١)

أغسطس.. لا يوجد أقسى من ظلم هذا الشهر..

في غرفتي جلسنا أنا وهو كثيرًا نتفاوض، قدمت إليه كل الحلول، وتنازلت عن كل ما أملك، أما هو.. فأبى وأعرض ثم هرب.

استسلمت وأسندت رأسي إلى حافة السرير أراقب تلك الأشباح الصغيرة التي تلهو في غرفتي.

زجاجة البراندي - زينب - مشاجرات أبي وأمي التي لا تنتهي.

فبعد كفاح دام لسبعة وعشرين عامًا، وصبر استغرق تسعة عشر عامًا، لم يحتاجوا إلا ثلاثة أعوام عجاف، ضحكات قتلتها الدموع وأحلام وقعت تحت اعتقال اليأس.

يخدعون أنفسهم قبل الجميع، نعم نريدهم.. ونسعى إليهم، الاستقرار والامتداد، الهداية بعد أن عاثوا في الأرض فسادًا، إنه الحل لجميع مشاكلهم، وجميع مشاكلهم هي فقط تلك التي بين ساقيهم.

أما ثمرة هذه الحلول الفاشلة لتلك المشاكل الوهمية، وبدون أدنى تدخل منهم، قليلون من قضى نحبه، أما الأغلب من ينتظر.

(٢)

وبدون استئذان، رغم أنه من أهم سماهم التي على وجوههم، اقتحموا غرفتي براياتهم الخضراء، ولحاهم البيضاء، يتقدمهم ذلك الرجل بحصانه الأسود.

- مدااااااااااااااااااااااد، حي.

اقترب مني خطوة، وهز رأسه اثنتان، وربت على كتفي ثلاثة، ثم ابتسم.

قال: لَم ترضى أن تكون من الغافلين؟

قلت: بل أنا في كامل وعيي.

قال: معنا فقط يكون الوعي الكامل بذهنٍ صافٍ وقلب خاشع، لا تنتظر.. وهيا.. إنه النداء الحق.

قلت: وماله!!

(٣)

وقبل أن أقوم من مقامي هذا، شعرت بحرارة تسري في جسدي.

دخلن بهدوء ونظرن إلى الرجل صاحب الحصان الأسود بتحدٍّ.. فتراجع يتخبط كمن مسه عفريت من الجن.

نظرن إليّ وتولَّت كلٌّ منهن مهمتها.. واحدة أخذت تعتصر شفتيَّ.. والأخرى قبَّلتني في عنقي والثالثة وضعت وجهي بين نهديها.. والأخيرة تحسست عضوي.

كُنَّ عراة، ونهودهن مختلفة.. إحداهن كانت بنهد ممتلئ، والأخرى بنهد في حجم ثمرة الرمان.. أجسادهن قادرة على إشعال النار في جسد أي رجل، أما أنا فأخذت أتذوق كل واحدة منهن.. أعتصر نهد واحدة بيدي وألعق نهد الأخرى، وأتحسس الحرارة وهي تخرج من بين ساقي الثالثة.

وقبل أن أغرس عضوي في أعضائهن جميعًا.. سحبني من يدي بشدة ذلك الرجل.

(٤)

كان يرتدي بذلة سوداء، ويمسك بيده سيجارًا من نوع فاخر، وتبدو عليه ملامح الجدية.

كان في حالة عصبية لم أستطع معها حتى أن أستوعب، أخذ يردد كلامًا عن الليبرالية ومساوئها، والعدالة الاجتماعية، والمجتمع البرجوازي، والبلوروتاريا.

وأخذ يترحَّم على كارل ماركس، وفلاديمير لينين، وجيفارا، ويلعن أمريكا والرأسمالية والحركة الوهابية.

ثم أخذ نفسًا عميقًا من سيجاره، ونفث دخانه في وجهي، تنهَّد وصار أكثر هدوءًا.

قال: كان الله في عون هذا الوطن، الفقر منتشر، والجهل يحتل العقول، وتعليم فاشل، وموارد مهدرة، وغياب تام للديمقراطية وقانون الطوارئ يحكم البلد منذ ثلاثين عامًا، وصاحب الفضل في كل هذا هو النظام وحده.

قلت: ما باليد حيلة.

قال: أنت واهم، إن التغيير لن يأتي إلا بأيدينا نحن.. اسمع.. هناك مظاهرة في ميدان طلعت حرب اليوم للاعتراض على هذه الأوضاع، لا بد لك أن تكون معنا.

قلت: نعم.. لقد طفح الكيل بنا، أنا معكم.

وقبل أن أهم بالذهاب معه وجدت من ينهال على الرجل صاحب البذلة السوداء بالضرب والسب.

(٥)

كانت هي من وجَّه هذه الضربات والصفعات للرجل، وأخذها نوبة من السب.

- ماذا تريدون منه يا ولاد الكلب؟ وعندما يأتى زبانية أمن الدولة ويأخذونه، هل سأفرح بكم؟ تعتقدون أنكم قادرون

على إصلاح الكون ومن فيه، وأنتم مجرد مجموعة مدَّعين، تسعون لمصالحكم الشخصية فقط.

لم يقاوم الرجل هذه الضربات والسباب، وتراجع إلى الوراء وهو منكس الرأس.

عندما تراجع ذلك الرجل التفتت هي إليَّ وقد تبدلت ملامحها تمامًا، نظرت إليَّ نظرة حنان جعلت الشك يتسرب إلى قلبي بطريقة أسرع، ثم ابتسمت وجلست على قدمي، وأخذت تعبث بيدها في شعري.

وفجأة هبَّت واقفة وتلاشت الابتسامة من شفتيها، وارتدت قناع الجدية..

قالت: لقد أتى من يطلب يدي من والدي اليوم.

قلت: ألف مبروك.

قالت: أتتخلَّى عني بهذه البساطة؟

قلت: ليس بيديَّ شيء أقدمه لكِ، وأنت تعلمين ذلك..

(٦)

وفي هذه اللحظة احمرَّ وجهها، وجحظت عيناها، وشمَّرت ساعديها، وانهالت عليَّ بالضرب، وأخذت تصفعني على وجهي وتوجِّه الشتائم والسباب، وبعدما أحست أنها شَفَت

غليلها مني، التفتت إلى الفتيات العاريات، وأخذت تضربهم وتلعنهم، وتدخل الرجل صاحب البذلة السوداء بمظهر من يفض المشاجرة، ولكنه كان في الحقيقة يتحسس نهودهن وفروجهن، ويضربهن على مؤخراتهن، أما الرجل صاحب الحصان الأسود وأتباعه فقد اكتفوا بالمشاهدة، وهم يرددون أذكار الاستغفار.

أما أنا فشعرت بصداع رهيب يحتل رأسي،وبيد امتدت لتأخذ يدي، نظرت إليه.. كان ذلك الهارب قد رجع، ونظر إليَّ وارتسمت على وجهه ابتسامة شفقة، أخذني وحلَق بي بعيدًا، بعيد جدًّا.

رجالٌ من أرضٍ تحترق
إيمان أكرم البياتي

- أنا معكم! (قالها وهو يستعدُّ للوقوف، تاركًا خلفه كرسيه الهزاز يخترقُ لوحده الهواء في الحجرة).

تسمّر الجميع وسكنوا عن الحركة، واتجهتْ إليه الأنظار جميعًا تعلوها الدهشة، استدارَ إليه غسان فورًا وملامحه تكتبُ على وجهه أكثرَ من علامة استفهام: أنت يا باز؟! هل تتحدثُ بجدية؟!

تحاشى النظر المباشر إلى عيونهم، وراح ينشغلُ عنهم في ترتيب هندامه وإحكام أزرار سترته الجلدية: نعم أنا جاد، فقط ليُجهّز أحدكم كاميرتي، سأسبقكم أنا إلى السيارة.

وما إن أغلقَ البابَ خلفه وتوارى عن الأنظار، حتى انتفضَ نوّار من مكانه مبتهجًا: رائع! باز معنا من جديد، من كان يصدق؟!

ربت غسان على كتفه وهو يمر من أمامه: أنا سعيدٌ ومندهشٌ مثلك، لكن لا وقت نضيعه، اذهب إلى أدراج غرفة التصوير وأحضر كاميرا باز الذهبية، وتأكد أنها تعمل بشكلٍ جيد، سأجهّز أنا باقي الحقائب التي نحتاجها. (ثم أدار وجهه شمالًا وتابع قائلًا): أما أنت يا حسن، فاذهبْ وأخبر مدير

التحرير بخروج فريقنا بعد قليل، ولا تنسَ أن تُعلِمه أن بازًا سيرافقنا مصوِّرًا هذه المرة.

نادية: أنا قلقةٌ يا جماعة.. هل تظنون أن بازًا سيتمكن من أن يفعلها مُجددًا؟ (مضطربة الأنفاس وهي تحدث نوّار وغسان وحسن).

يتنهدُ كل من نوّار وغسان ويجيب حسن: لا أعرف، أخشى أن تخونه يداه، فلم تغادره تلك النظرة الحزينة ولا رعشة اليد منذ الحادث.

غسان (يضرب بيده على المنضدة الخشبية لينتبه الجميع): دعونا نتفاءل.. ولنقل إن شاء الله.

ترتفع عينا نوّار لتقع على الشاشة الرقمية الكبيرة المثبتة على الحائط، وهي تُعرض تقريرًا حيًّا من الشارع في بغداد: كفاكم كلامًا لم يبقَ سوانا، متى سنصل للموقع؟! انتشروا الآن.. استعدوا واقصدوا السيارة.

فيخرجُ من الحجرة غسان وحسن ونادية، ويقصد نوّار غرفة التصوير، حيث أدراج الكاميرات وأرشيف الصور.

ينحني ليرفع غطاء النايلون السميك عن الكاميرا الذهبية، كاميرا باز التي طالما نعتها الجميع بالذهبية رغم لونها الأسود الداكن؛ إشارة إلى الصور المميزة التي كان يلتقطُ بها في الماضي،

راحَ يتأملها ويكلمها هامسًا: أربع سنوات وأنتِ هنا عزيزتي،
حتى اعتقدت أنكِ لن تخرجي من هذا الدرج يومًا من حديقتها...

وترتفع عيناه على عجل إلى حائط الغرفة؛ حيث الذي ولّته الصور والشهادات التقديرية...

أفضل صورة لعام ٢٠٠٥ بعدسة المصور العراقي باز (هاشم عبد السلام)، تفوز باستفتاء العالم الذي أجرته وكالة الأنباء الفرنسية حول صور الحرب على العراق.

ثم إلى جوارها.. تمنح نقابة الصحفيين العراقيين الصحفي المصور باز هاشم عبد السلام الجائزة الأولى عن مقاله (رجال من أرضٍ تحترق)، المشارك في المسابقة التي أقامتها في.....

فيقول نوّار محدثًا نفسه بصوت مسموع تخنقه العبرة ويغلفه الرجاء: باز.. يا ليتك تعود كما كنت.

ويأتي سريعًا إلى ذاكرته مجموعة من الصور المقطعة المبعثرة؛ كما لو كانت فيلمًا تسجيليًّا...

انفجارٌ عنيف بالقرب من الجامعة المستنصرية.. طلاب مذعورون.. هياكل محترقة.. سيارات متفحمة.. طفلة حافية القدمين تبكي وحيدة في الشارع بثياب ممزقة سوداء.. امرأة منتحبة تجلس على الرصيف تخفي وجهها بعباءتها.. سيارات الشرطة تحيط بالمكان، صوت صفارات الإطفاء يقترب سريعًا.. فلاشات الكاميرات المختلفة تخترق الحشود.. أحدهم يصرخ ويطلب

المساعدة.. صوت مرتفع يأتي من ميكروفون مجهول المصدر ينهر عن التجمع.. باز وأمير ووليد في مهمة عملٍ من أجل أحد التحقيقات في الشارع.. إطلاق نارٍ عنيف يقصد الثلاثة.. باز جريحًا في مستشفى مدينة الطب، الفريق يزوره هناك، زوجته تبكي وهي ترحب بهم، وصغيرته ريم تتناول الآيس كريم ولا تعي ما يدور حولها.. يد وليد اليمنى تُصيبها رصاصة في أحد الأعصاب الحرجة، تشلها عن الحركة، ثم يسافر وعائلته إلى دمشق، قبلاته لوليد بالقرب من الموصل.. أمير يعود إلى زملائه في نعش.. مشهد جنازته وهي تخرج من المسجد.. نحيب والديه العجوزين ودموع شقيقته الوحيدة...

يفقد الفريق وليدًا وأميرًا، ويتأثر باز بما حدث، فلا يقوى بعدها على حمل الكاميرا أو الخروج في مهمة صحفية؛ حفاظًا عليه يترجاه مدير التحرير ألا يغادر قسم التحقيقات، وأن يعمل صحفيًّا مكتبيًّا.

يرن جهاز الهاتف المحمول، فيقطع على نوّار الذكريات، إنه غسان..

- أين أصبحت؟! كلنا في السيارة.. هل وجدت الكاميرا أم آتي أنا؟

يهز رأسه، يمسح ما تجمع من دموعٍ خلف جفنيه، وينهض حاملًا الكاميرا الذهبية على ظهره قاصدًا السيارة، تنطلق الأخيرة بسرعة إلى داخل العاصمة، وتذوب في الزحام.

خارج السِّرب

إيمان سعيد

سرب من الطيورالمهاجرة يشد عنايتي وناظري إلى السماء، هي اختارت الرحيل أيضًا، ضحك ليسرق بضحكته تقاسيم الحزن التي اعتلت وجهه، رد عليه جمال بضحكة مماثلة..

– هوِّن عليك صديقي، فها نحن نقترب من حلمنا، أشعر وكأنني كدت ألامس اكتمال ملامحه، فها نحن على شواطئ ليبيا.. المعبر إلى بلد الأساطير.. إيطاليا.

– منذ تخرجت بالثانوية الصناعية وأنا أحلم ألَّا أعيش كباقي زملائي.. أدفن أمالي وأحلامي في كفن الرضا بالمكتوب.

– أشعر دائمًا أنني مميز، طوال فترة دراستي الأول على المدرسة، ولولا حاجة أبي للمال.. لما فرطتُ في حلم تخرجي في كلية الهندسة، ودفنت حلمي في غياهب فقري، حتى أيقظته أنت يا جمال، فكان كلامك عن رحلة ابن خالتك إلى إيطاليا، وكيف عاد منها ليتزوج بابنة عمدة البلد.. التي لم يكن يحلم بها يومًا، وتركته من هي أقل منها لقلة حيلته، جعل كل شباب البلدة ينسجون من خيالهم أحلامًا تدور في فلك كلماتك المتناثرة في عقولهم، حتى تسللت أطيافها إلى القلوب فسكنتها،

فأحالت دقاتها إلى خادمين مخلصين لهذا الشوق المبهم لتحقيق هذا الحلم.. الذي تعدى حدوده بداخلي وداخلك.. إلى يقين بأن الباقي من حياتنا لا يتسع إلا لتحقيق هذا الأمل الوحيد الذي يكفل لنا العيش بكرامة أو.....

جمال متوجسًا: أو ماذا؟

○ أرتجف من شدة البرد محتميًا بمعطفي عله يكفل لي الدفء الذي أرجوه، ولسان حالي يقول: دومًا كنت أربط موتي بالمطر.

تتراكم حبات المطر لتبلل شفاهي البيضاء، ترسم طريقًا لها فوق رقبتي لتعبر منه إلى باقي جسدي، صوت الرعد يصك الآذان، البرق يشق السماء بخط أزرق مهيب، ويشق معه قلوبنا شطرين، شطر يملؤه الأمل في البقاء لتحقيق الحلم، والآخر يتعلق بإحساس دفين بأنها النهاية.

أثقل النعاس أجفاننا؛ بالرغم من استحالة الفكرة في هذا الوضع.. لكني أعلنت عن رغبتي لجمال فرحب بها، كأنه وجد طوق النجاة من بحر الخوف المعربد في جوانحنا، افترشنا ألمنا، توسدنا خوفنا، التحفنا بأحلامنا.. في ركن صغير فوق سطح السفينة البارد، سبحنا في ظلال ضوء القمر الخافت نغط في أحلام، بين الغفوة واليقظة.. يتنامى إلى سمعي أنغام العزف

المتواصل بفوضى مستقرة من مزامير رفاقي النائمين منذ ساعة أو أكثر.

أحسستُ بجاري، من جهة اليمين، يتقلّب في فراشه، سمعته يئن أنينًا خافتًا موجعًا، كأنما يبكي، في حين ظل جاري من جهة اليسار، ذائبًا في ظلمة النوم، أيقظني الصمت المفاجئ الذي أطبق على جاري جهة اليمين، تعقبه حركة عنيفة لجاري جهة اليسار، فأفزعت طيور النعاس التي كانت تحوم في رأسي، قمت لأتفقد جوقة العازفين، الذين توقفوا عن العزف الواحد يلو الآخر، كنا أكثر من ثلاثمائة شخص على متن السفينة جَمَعَنا الكدح، صَهَرَنا في بوتقته الهلاميّة، فبدونـــا متشابهين، على الرغم من اختلاف سحنتنا، وتفاوت أعمارنا، حيث لم يزد أصغرنا عن الثالثة عشرة، بينما كان أكبرنا قد تجاوز الخمسين بأعوام، لم أحتج للسؤال عما يحدث، يكفيني النظر في وجوههم حتى أفهم ما يجري، أجابني جمال من بين أسنانه التي تصك بعضها بعضًا: .. لـــ.. لـــ.. لقد تعطلت محركات السفينة.. التي لم تكن مجهزة لنقل كل هذا العدد من الركاب، آسف سيد.. لم يروِ لي ابن خالتي عن مثل هذا الخطر.

المطر قد عبّأ جسدي تمامًا، فبدأت أهذي..

- لم يكن هذا ليغير من الأمر شيئًا.

مرت لحظات عشنا فيها الموت في حضرة الأمل المحتضر في الحياة، حتى مرت سفينة إيطالية محملة بالبضائع، فكانت لنا أملًا في البقاء، هلل الجميع.. بالرغم من يقيننا بأن السفينة لا يمكن أن تنقذنا جميعًا.. وهي محملة بكل هذه البضائع، تسارعنا في همجية شديدة تدفعنا غريزة البقاء، فبدا لي وكأن الموت الذي جمعنا.. تخلى عنا، ليتركنا للأمل في الحياة.. يفرقنا، فقررت أن أقفز في البحر.. هربًا من ساحة معركة البقاء، أنا أجيد العوم، أما جمال فكان يطمح في مكان آمن في سفينة البضائع.. تركني وحدي ألاطم الأمواج الباردة.. والذكريات المتأججة تشتعل في رأسي.

أحسست بيد تربت على كتفي، تملكني خوف شديد، أهي سمكة قرش؟ أهكذا ستكون النهاية؟! نطقت الشهادتين مستسلمًا، فلم يعد في استطاعتي المقاومة، فتل البرد أعضائي كلها، استدرت لأواجه الموت بشجاعة، فوجدته جمال، أدركت أن الحياة تولد من رحم الموت أحيانًا، على الرغم من أن الأمر بدا لي غاية في الصعوبة.. إلا أنه كان السبيل الوحيد أمامي، انتزعت عنه طوق نجاته.. بعدما تأكدت أنه فارق الحياة، أكملت طريقي متمسكًا به، فكان هذا أقل ما أقدمه له.. وفاءً لما أسداه لي من جميل، لكني لم أستطع حمله معي حتى النهاية، لاحت لنا من بعيد سفينة أخرى تحمل الأمل في الحياة لمن تبقى منا على قيدها، كنت واحدًا منهم، يبدو أن السفينة

التي أخذت معها بعضًا منا.. أبلغت عن مكان وجودنا، ساعدني طاقم السفينة في الصعود على متنها، أتحسس أطرافي بين الفينة والأخرى، فاندهش رجال الإنقاذ لحالي، فرحت في بكاء مرير، أهذي بينما ترتجف أطرافي..

– كنت أخاف الموت دومًا.. بعدما رأيته.. ما عدت بعد يومي أخاف سوى التهام القرش أطرافي، فهكذا وجدت جمال.

ذهبوا بنا إلى السفير المصري في إيطاليا، ولإراقة ماء الوجه.. طلب بالإسراع بترحيلنا إلى مصر، فهجرتنا غير الشرعية.. لا تكفل لنا البقاء هناك، فصرخت في وجوههم..

– إنني لا أريد العودة.

فوجَّه السفير كلامه لي.. بلهجة يخالطها التعجب بالشفقة:

– أوما زلت تفكر في البقاء هنا.. بعد ما لقيته من سفرك هذا نصبًا؟!

– بل وأكثر من ذلك، إنني لو عدت إلى مصر.. سأعاود الكرَّة.

عقد حاجبيه:

– وماذا عن الموت؟!

بشفاة باردة أثقلها اللهاث وراء الحلم..

- الموت كل الموت.. هو الحياة التي تنتظرني هناك.. أما هنا.. فموتي احتمال.. وحياتي هي الحلم والأمل.

ضعت في غيبوبة، نُقلت على أثرها إلى المشفى، بعد ساعات، سافر كل من نجا من حادث السفينة الأليم.. إلا شخصًا واحدًا فر هاربًا.. وتركته السفارة.. لأنه بعد السؤال عنه، قال السفير المصري:

- لقد تحادثت معه.. واستقر رأيي على أنه مختل عقليًا.

البيت الريفي القديم

إيمان مكاوي

أنوار وأفراح وموكب كبير في استقبال والدي الحاج أنـــور سلامة القادم إلى بلدته بعد طول غياب لافتتاح مصنعه الجديد في بلدته التي نشأ فيها..

لم يكن كل ذلك ليروق لي.. تاقت نفسي للذهاب إلى حيث أجد نفسي.. إلى مترل جدي القديم المطل على المزارع الخضراء وأشجار النخيل.. أتنسم رائحة الماضي البعيد وأستشعر لحظات السعادة التي عشتها في طفولتي وأفتقدها في صبايَ وشبابي بعيدًا عن هذا البيت.

لم أكن أعلم أبدًا وأنا ألعب في جنبات هذا البيت الريفي العتيق يحدوني الأمل.. أجري هنا وهناك أداعب الأحلام ببراءة الأطفال.. لم أكن أعلم أنني سأرجع إليه يومًا أجر ورائي أحلامًا مهدمة وماضٍ بغيض..

ها هو البيت الذي بقي زمنًا لا يسكنه أحد بعد وفاة جدي وجدتي التي رحلت بعده بعدة سنوات.. ظل البيت مهجورًا يبكي ساكنيه..

دخلت من تلك البوابة الخشبية الكبيرة التي طالما دخلت منها أنادي جدي ليشتري لي غزل البنات.. كان جدي يحبني

كثيرًا ويؤثرني على جميع إخوتي.. كنتَ أسمعه دائمًا يقول إنني أشبه عمتي التي ماتت وهي صغيرة بمرض لم يعرف أحد وقتها تشخيصه.

عبرت البوابة إلى ردهة المنزل.. التفتُّ يسارًا لأجد جدي الحاج سلامة السويفي جالسًا على أريكته المفضلة بشاربه الخفيف، ملابسه المهندمة، ورائحة الياسمين التي كان يعطر بها ملابسه دائمًا، كان يستمع إلى خطاب السادات الذي كان يحبه كثيرًا ويمتدحه بقوله إنه رجل الحرب والسلام، عبر القنال وحرر الأرض ورد كرامة المصريين.

وبجانبه جدتي تطل من النافذة على نساء القرية المارَّات أمامها فتسلم على هذه وتحادث تلك.. لم تكن لتهتم بالخطابات كثيرًا.

كان المكان ساكنًا، خفتُ لبرهة من سكونه، لم أتعود على هذا السكون.

الجو في ذلك اليوم كان صاخبًا، كان هناك عراك بين جدي ووالدي الذي انضم للجماعات الإسلامية المتشددة وقتها، لم أكن أفهم أو أعي ما يدور بين جدي ووالدي من نقاش وأنا في عامي السادس.. جهاد.. تكفير.. هجرة.. لم أفهم تلك الكلمات.. ولكني فهمت جيدًا أن خطبًا ما حدث وغيَّر أبي..

لقد أطلق لحيته وجعل أمي تغطي وجهها.. كذلك أنا وأختي التي كانت في الرابعة من عمرها.. جعلنا نغطي رأسينا ونلبس ملابس طويلة لم نستطع اللعب بها مع الأولاد والبنات في منزل جدي، ثم جاءت الطامة الكبرى لقد حرمنا من اللعب مع الأولاد.. قالت أمي إن ذلك حرام، حرام أن نختلط مع الأولاد في اللعب.. لقد حُرمت من اللعب مع محمد، لن يحضر لي الحلوى التي أحبها بعد الآن.

لم أكن أعي سر هذا التغيير في حياتنا.. نهرني والدي لأني أشاهد برامجي المفضلة في التلفزيون في بيت جدي بعد أن باع هو التلفزيون وحرمه علينا.. سأُحرَم من بابا ماجد وسينما الأطفال لأنها حرام!!

لم أكن لأفهم معنى كلمة حرام، ولكني عرفت أنها مفتاح السر لسلسلة من المحرمات والممنوعات فرضت علينا.

صوت قادم من الغرفة العلوية.. إنها غرفة الضيوف في بيت جدي، لقد بقي فيها أيامًا لا يذوق الطعام ولا الشراب حتى يتراجع أبي عن أفكاره ويترك تلك الجماعات التي غيرته هكذا، سمعته يخبره بأن الرئيس السادات لن يسكت عليهم، وأنه بدأ في القبض عليهم.

– يا ولدي لن أستطيع العيش إذا قبض عليك...أنت ولدي الوحيد..

كانت تلك كلمات جدي لوالدي الذي لم يكن ليتزعزع عن أفكاره التي اعتنقها وأصبحت راسخة في نفسه رسوخ العقيدة.

إنَّ غرفة جدي وجدتي يمين الردهة.. دخلتها.. إنها باردة مظلمة.. ولكنني شممت فيها رائحة جدي.. سمعته يهذي وهو مريض بعد انقطاعه عن الطعام والشراب..كان الموقف متأزِّمًا.. وقد بدأ السادات بالفعل في القبض على الجماعات الإسلامية المتشددة..

اعتل جسد جدي.. وجلست جدتي بجانبه تبكي زوجها الذي خارت قواه وتخشى رحيله وتبكي وحيدها الذي تخشى عليه أن يصبح سجينًا بين يوم وليلة ..

لقد قبضوا على أصدقائه محسن عبد الراضي والشيخ صبري المحلاوي

كنت قد بلغت الثانية عشر من عمري عندما جاء والدي يخبر جدي عن عزمه السفر إلى بلاد البترول؛ فهناك لن يكون مهددًا بالسجن في أية لحظة.. أسقط في يد جدي.. ولكني لم أسمع منه غير الدعاء لوالدي.. أما جدتي فلقد بكت.. أسكتها جدي قائلًا:

- هل تحبين أن يجلس بجانبك ولا ترينه مرة أخرى؟

وسافر أبي إلى بلاد البترول ليبدأ حياة جديدة بعيدًا عن التهديد، وتركنا في بلدتنا حتى يستقر أمره.

وما هي إلا أيام وقتل السادات.. كان جدي جالسا هنا على أريكته يبكي بحرقة.. لم أره يبكي هكذا يوم أن رحل والدي.

وكانت تلك آخر لحظات أقضيها مع جدي.. فلقد رحلت وأمي وإخوتي إلى أبي ليبدأ فصل جديد من حياتي في عالم مجهول لا أعرف عنه شيئًا.. ومصير محتوم ينتظرني.

في بلاد البترول عشنا سنوات طويلة ازداد أبي فيها تشددًا.. وضيَّق الخناق عليَّ وعلى أختي.. ألزمنا بأن نغطي وجهينا.. لم أكن أكره ذلك.. ولكني كرهت أن أفعله لكي لا تأكل النار وجهي.. وكأن علاقتي بالله أن أغطي وجهي لكي لا يعاقبني.. وكان من ضمن المحرمات التعليم.. فالبنت لا يجوز لها أن تخرج من بيتها حتى ولو للعلم.. عليها أن تبقى في بيت أهلها حتى يأتي من يسترها في بيته.. وكأنها عار يجب ستره.. توسلت لأمي أن أكمل تعليمي.. ولكنها كانت أشد صلابة من أبي.. كانت ترى أن المرأة مكانها بيت زوجها.. وقد خلقت فقط لخدمته..

آه لو كان جدي هنا.. لم يكن ليرضى بذلك أبدًا.. كان يحلم بأن أكون طبيبة.. أعالج أهالي بلدتنا وأبعد عنهم شبح الأمراض التي قضت على كثير منهم لسنوات طويلة..

أصوات الأفراح المقامة لافتتاح المصنع تتعالى.. من بعيد أسمعها من هنا.. لم يكن فرحي هكذا! لقد جاء من يسرقني ويواريني في بيته بدون أفراح.. ساقني لمصير أجهله ولم يكن لي حتى حق الاختيار..

كان من نفس جماعة أبي المتشددة التي تحرم كل شيء.. ولم يبقَ لنا حلالاً سوى الهواء الذي نتنفسه.

إن أريكة جدي لا زالت في مكانها.. سأرتاح عليها قليلاً لعلي أستأنس به وبحكاياته التي لا تنتهي.

على الحائط كانت هناك صورة لنا في أحضان جدي وجدتي.. كانت الإبتسامات والضحكات نابعة من القلب.. براءة الأطفال يحيطها عطف وحنان الأجداد.

أين ذهبت وتركتني يا جدي؟ لم تركتهم يزوجونني وأنا لا زلت صغيرة؟

عشت مع زوجي سنوات طويلة، وإن كان في حقيقة الأمر لم أعش معه سوى أوقات متقطعة.. فبعد زواجنا بعام واحد أخبرني بأنه سوف يسافر للجهاد في أفغانستان.. تساءلت.. هل سيتركني وابني بمفردنا؟!! قال إن الجهاد فرض على المسلمين، وإنه فريضة غائبة في زماننا، وعلينا أن نحييها.. استنجدت

بوالدي الذي لم أجد عنده سوى المباركة لموقف زوجي.. حاولا أن يفهماني.. ولكني لم أفهم سوى أنني سأحيا بلا زوج مع طفلي الصغير.

غاب زوجي أيامًا طويلة وليالي باردة.. عانيت فيها الوحدة حتى وأنا في بيت أبي ووسط أهلي.. وعندما رجع لم أكن لأشعر بوجوده جانبي.. لم يكن يعاملني كحبيبة له أو زوجة.. وإنما مخلوق خلق من أجل خدمته والسهر على راحته وفقط.

رزقت منه بثلاثة أبناء وبنت كانوا هم كل حياتي.. ولكن وجودهم لم يكن ليملأ الفراغ الذي كنت أستشعره دائما.. حتى كاد يخنقني.

إن الجو هنا رطب.. لا زال البيت يحتفظ بنسماته الباردة..

سأفتح النافذة المطلة على الشارع كانت جدتي تجلس على تلك الأريكة بجانب النافذة لساعات طويلة تحادث الجارات أو تراقبنا ونحن نلعب..

آه الأريكة.. إنها مخبئي المفضل.. بها سحَّارة كنت أخبيء فيها أشيائي المفضلة..

ترى هل لا زالت أشيائي بها لم يمسسها أحد.. نعم إنها هنا..

هذه العروسة التي أهداني إياها محمد صديق الطفولة قبل سفري..خبأتها هنا لكي لا يراها أحد معي فيعرف أنني اخترقت المحرمات ولعبت معه قبل سفرنا..لا زالت على حالها.. ترى أين هو محمد الآن؟

هل تزوج؟ هل أصبح لديه أولاد؟ كان يخبر أولاد الحي بأنه سيتزوجني عندما نكبر..

لقد سافر زوجي بعد عدة سنوات ليلتحق بالمجاهدين في أفغانستان مرة أخرى.. ومنذ تلك اللحظة لم أره..

والآن قد تغير كل شيء..

أصوات المزامير والأفراح عند المصنع تقترب.. أشاهد الأنوار من نافذة جدتي..

ليت أبي بنى البيت الريفي الجديد هنا في نفس مكان منزل جدي.. ليتنا لم نترك هذا البيت.

لقد تأخر الوقت.. لعل أولادي يبحثون عني.. إنهم يشاهدون المسلسل.. لقد ركّب أبي اليوم الدش في البيت الريفي الجديد.

تلقي نظرة أخيرة على البيت الريفي القديم وتأخذ عروستها معها وترحل إلى حيث البيت الريفي الجديد.

حياة من أحضان الموت

إيمان هشام محمد حنيش

تتزايد حركة السيارات على الطريق.. تصاحبها خطى متثاقلة وهمهمات متقطعة تعلو من الشوارع المجاورة.. معلنة عن بزوغ صباح جديد.. صباح حجبت شمسه عن التسلل من بين نوافذي التي أحكمت إغلاقها..لتلبث الغرفة غارقة في الظلام.. لكنها لم تحجب صوت عقارب الساعة النافرة على الحائط.. لتنسج بين دقاتها ماضيًا منسيًّا، ومستقبلًا باهتًا مرتقبًا، والحاضر أصبح كفيفًا منذ أن بدأ يحبو في الظلام..

أقابل الدقات بتململ.. وبأيدٍ واهنة.. أضع الوسادة على رأسي متظاهرة بأني أغط في نومٍ عميق.

***

بأيد مرتعشة.. تلملم خصلات شعرها المتساقطة من حولها..ٌتعتصرها بقوة.. لتستمد منها رحيق ماضٍ ليس ببعيد..حين كانت تعقص شعرها للخلف..فيتطايرٌ مع النسمات.. ليتحرر تدريجيًّا من ربطة شعرها، والآن تحرر للأبد.. بعد أن أُسِرت هي..

تمقت تلك الأسوار التي فرضت عليها.. تمقت نظراتهم إليها وكأنها حطام حُرِّج عليه الحراك حتى لا تتبعثر أشلاؤه.. فهي لا

تبالي بذاك المرض اللعين الذي انتشر بجسدها كالنار في الهشيم.. لا تبالي بحالها في المستقبل.. فقط تريد أن تعيش تلك اللحظة بعيدًا عن تلك الأسوار.

تدفع جسدها الواني صوب النافذة لتفتحها.. فتدخل أشعة الشمس قاشعة الظلام.

***

ظلام حالك يكسو كل ما حولي.. أهيم بينه على غير هدى.. لا أعلم إلى أين أو لِمَ؟!.. فقط أشعر أنه يتوجب عليَّ متابعة السير.. أتلفت حولي محاولة التعرف على ملامح الطريق.. حينها أسمع صوت قرقعة قريبة.. فيجرفني الفضول صوبها.

هالني مظهرها.. أجدها برأسها التي تلمع في الظلام، ومعالم السقم البادية على ملامحها.. تطيح بحجارة تلو الأخرى من ذاك الجدار العتيد..تتوقف برهة لتلتقط أنفاسها المتلاحقة.. ثم تتحامل على نفسها لتتابع من جديد..

أسألها عما تفعله.. فتجيبني بصوت متهدج - بينما تطيح بحجر آخر: لن أسمح لذلك الجدار بأن يعيق الضوء.. تسري قشعريرة بجسدي إثر كلماتها.. فقد كنت في أعماق نفسي آلف تلك الظلمة، ولا أبغي لها انقشاعًا..

أسرع بالتقاط الحجارة المهشمة لأعيد بناء ما قد هدم من الجدار.. فتنظر لي بدهشة يشوبها بعض من الغضب.. أدركها قائلة: ألا تخافين مما قد يقبع خلف تلك الأسوار؟.. تطرق الجدار بعنف لتهشم منه جزءاً لا بأس به صارخة: لا.. أريد أن أحيا بحق.. بينما تسللت بعض الأشعة الذهبية من تلك الثقوب - التي أحدثتها - لتكسو وجهها.

رثيت لحالها.. فقد دب الضعف بجسدها.. فأخذت تلهث بعنف بينما تتهاوى تدريجيًّا.. أسرعت بإمساك يدها محاولة جذبها.. لكني لم أستطع.. وكأن هناك قوة خفية تجذبها بعيدًا.. حررت يدها من بين يدي برفق قائلة: لا بأس فقد حان وقت الرحيل..

***

أقفز من سباتي إثر صرخة مدوية.. تتلصص أذني باحثة عن مصدرها في فزع، وسريعًا ما أسمع صرخات عدة - لاحقة بها - قادمة من المترل المجاور.. لم أنتظر معرفة سببها، فأنهض من الفراش وأبدل ملابسي على عجل.. لم أقرع أبوابًا أو أستأذن أهل المترل في الدخول، فقد كان الباب مفتوحًا على مصراعيه.. لم يكن هناك موضع قدم بعد أن امتلأ المترل بكل سكان الحي تقريبًا.. حيث كان البكاء والنحيب يصم الآذان.

أشق طريقي بين الحشد إلى حجرتها.. أجد جسدها المضمحل ممددًا بالفراش في سكينة.. بينما والدتها تفترش الأرض بجوار فراشها باكية.. أهرع لحجرتي.. أفتح نافذتي على مصراعيها.. أنتزع الساعة من على الحائط وألقي بها بعيدًا.

ها قد هُدِم ما تبقي من الجدار.. قالتها مبتسمة.. وقد تلاشت علامات السقم من على وجهها.. ونبت شعرها الفاحم من جديد لينسدل على كتفيها.. ثم اختفت كدخان...

طفلة مكتملة الشهوات

رهام القبطان

الطفلة التي أعرفها كانت تُشبهها.. دائمًا كانت هناك.. تنتظر على بداية الطريق الصاعد إلى المقطم.. وفي كل ليلة كنت أراها دون أن أنجح في وصفها لهم.. فكلما حاولت استعادة ملامحها تمتلئ الصورة بكل تلك القطط الصغيرة تقفز من صناديق القمامة للذاكرة.. نحيلة.. وحيدة.. ومذعورة إلى حد الهرب نحو لامبالاة العجلات المسرعة على الطريق..

أنا أيضًا لم أتوقف مرة واحدة، فلم أكن أفضل من كل الآخرين، وربما لم أفعل لمجرد أنني عرفت من البداية أنني لا أملك للطفلة تلك الحقيقة التي أرادتها دائمًا، وما كانت لتنالها أبدًا؛ لأنها ببساطة لم تطلبها، واحتفظت بصمتها المُقدس؛ لتظل كما كانت أبدًا أكثر أطفال البيت صمتًا، وأكثرهم تساؤلًا عن معنى الحقائق وجدواها!

أنا وحدي كنت هناك، أراقبها داخل دائرة الضوء، تُجالس صمتها على مائدة الأخوات، ولا تفهم من كل هذه الثرثرة اليومية؛ إلا أنها لا تريد أن تضع حياتها أمام الآخرين، قريبة لهذه الدرجة.. لكن هذا لم يمنعها يومًا من إدهاشي، وهي تقرر

تجربة المشاركة في ملء أطباق الظهيرة بالكثير من تفاصيل الثرثرة.

الطفلة التي تمرَّست على الخداع.. تعلمت التآلف مع كل الحكايات السخيفة دائمًا بعيون بريئة الدهشة، وبطفولة لم تكن أبدًا تُشبه ما تتخذ من خطوات جادة داخل حدود الظلام، وهي تنفصل تمامًا عن عالمهم في خروج أخير.

بريئة من كل صفاتها الوراثية.. خرجت من كل شيء إلى أي شيء.. ورأت بوضوح أن بالخارج تعلو أكوام القمامة على الطريق كله..

وعلى الطريق كان هو أيضًا بانتظار الاستماع إلى صمتها المقدس بالمزيد من كلماته فيها.

لسنوات.. ظلت حالة العشق التي كانت تتردد داخل نومها بصوته القوي تصنع كوابيس اليقظة اليومية، وتهديها لبدايات اليوم أشلاء امرأة تحاول أن تتعلم كيف تلملم بقايا عالمها من بين تفاصيل الذاكرة.

كيف تعود قادرة على أن تصدق صوته الواثق وهو يحدثها عن كل تلك القوة الإنسانية في إحساسها الخاص بالحياة، ويدفعها إلى حد التعثر باتجاه التخلص من مقدساتها القديمة، وهو يعدها بمجد سنواتها الذهبية في الثلاثين..

مع كل الحماس الذي تحدث به، كانت تفقد القدرة تدريجيًّا على سماعه – وربما الرغبة في ذلك أيضًا – بينما تدرك بفزع أنها تتحول إلى آلة تسجيل لأحلامه فيها، وأنه سيكون عليها بعد فترة محددة أن تؤديه أمام آخر، وبنفس الحماس اللائق بإله لحظة الخلق.

لم تجد الوقت ولا القدرة على أن تتوقف لحظة أثناء عملية الخلق الصغيرة؛ لتفكر في أهمية جميع الآلهة المبدعة – بما فيهم هو نفسه، وهم يعدونها بالخلود فيهم أو من خلالهم، فقط تساءلت عن كل تلك المتفجرات داخل روحه، متى تشتعل كالألعاب النارية في الأعياد؟! ومتى قد تنفجر بدوي يحطم قشرته الهشة، ويحوله لمصفاة تغرقها بكل تلك التعاسة البشرية الخاصة به وحده؟!

أمام من قد تتفجر الصلابة؟ ولصالح من كان هذا الضياع الشخصي في العشرينات الأولى بين البيت المتهالك بفعل الحرب والتهجير والإيمان المطلق الحماقة بالطوائف الجامعية وما كان من الولاء الداعر للشيوعية القديمة؟!

لصالح من ملأ رأسه بالمتفجرات ليغمرها بها، وتصدقها مع كل إحباطاتها الخاصة، وإحساسها الدائم بأنها مجرد بالون يمتلئ بالأسماك الميتة..

ربما أدهشها فقط - أو أراحها - أن ترى بامتداد الطريق صناديق القمامة فارغة تنتظرها، لتدخلها، تسكنها، وتكبر فيها، بحثًا عن ملامح أنثى تُقدِّمُها كأية جُثة طازجة على مائدة عشاء رسمية، بينما تتسع ابتساماتها الجانبية شقًّا مشوهًا بطول الوجه يسارًا، وهم يمضغونها بأحاديثهم التافهة عن الجدة المريضة، وغشاء البكارة المضمون لليلة الزفاف، مع عرض خاص من طبيب مصر الجديدة بألا يشتهي الجسد المخدَّر مقابل زيادة أجره.. وكل تلك الغثيانات المُعتادة حول طاولة عشاء رسمية عن الزوجة المخدوعة، والزوج الأحمق الذي أحب عشيقته الصغيرة إلى حد أن أفسد روايته الجديدة بعد أن وجد العنوان المناسب لها.

الطفلة كانت هي من انحنت أسفل المائدة تتقيأهم من رأسها، وهي وحدها رأت بوضوح أقدامهم العارية ثابتة، وكأن كل تلك الأسماك الملونة الميتة لا تغطيها برائحة لا تصل أنوفهم خلف مناديلهم النظيفة المكوية بعناية، كانوا يبدون منهمكين أكثر بإظهار الإنسانية في تخبطهم بحثًا عما فقدته البلهاء الباكية بينهم.

وحدها رأت الغشاء الرقيق مُعلقًا على الشمعدان الفضي في مُنتصف المائدة، تمامًا فوق بقعة الدماء على المفرش الأبيض جدًّا.. فاختارت أن تخرج.

المرأة الطفلة عرفت أنها لا بد أن تخرج، أن تنتظر شيئًا ما على الطريق الدائري الصاعد إلى المقطم، حيث فقدت منذ عمر طويل شيئًا كان مهمًّا، حتى لو لم تكن تذكر تمامًا اليوم ما هو.

ربما ستجد هناك طفلة تشبهها؛ لتخبرها بما فقدته.. أو تملكه لتعيده لها..

وبامتداد الطريق.. كانت رحلة الخروج الطويلة تؤكد لها أن صناديق القمامة ما زالت فارغة، بينما أكوام القمامة قد أغلقت كل الطرقات.

لماذا لم يكفِ كل ما صدقته لملء صندوق واحد هناك؟!

ضفيرة شعر

سعدية عبد التواب محمود

أنا يتيمة..

سمعت أحدهم في مرة يقول إن اليُتم صفة تسقط عن البالغ.. فهو بعد بلوغه لا يكون يتيمًا.. لا أدري أصل هذه المقولة الشرعية أو النفسية.. ولكن كل ما أعرفه جيدًا.. أني كنت وما زالت حتى الآن يتيمة.

كنت يتيمة منذ العام الأول من عمري منذ وفاة أمي.. وحتى الآن وأنا ناضجة وأم لأربعة أطفال ما زلت يتيمة.. وما زلت أشعر باليتم.. بل إن اليتم هو صفتي الأولى وانتمائي..

عادة ما يقدم الناس أنفسهم أولًا بما ينتمون.. فتجدهم يقولون: أنا مسلم مثلًا أو قبطي.. ثم يضيفون جنسيتهم فيكونون: مسلم مصري أو قبطي أردني أو غيرها.. ويمكن لأي شخص أن يختار انتماءه.. ويكون هو أولًا هذا الانتماء ثم أي شيء آخر.. فقد يتخذ مذهبًا دينيًّا.. فيكون انتماؤه الأول.. فيقول: أنا وهابي مثلًا.. ثم أي صفة أخرى.

وأنا يتيمة..صفتي الأولى..والتي أشعر بها تمثلني جدًّا وتفصح عني هي اليتم.. وهي صفة لم أخترها.. وانتماء لم أبحث عنه..

ولكني وجدت نفسي أحيا في بيت مع أبي وأخوين ذكرين أكبر مني.. وبلا أم.

بالطبع لا أذكر جيدًا سنوات عمري الأولى.. ولكن من المؤكد أني وقتها لم أكن أشعر بأني يتيمة.. شعرت باليتم عندما اكتشفت وجود الأم في الحياة.. و عرفت ذلك من جيراني.. فكل بيت به أب وأم إلا بيتنا!

وعندما سألت أبي: لماذا ليس في بيتنا ماما؟!

فوجئ بالسؤال.. وشرد قليلًا ثم قال لي: إن ماما في السماء.

وعندما سألته: لما لا تعيش معنا وتترك السماء؟

تنهَّد ومسح على شعري وقال: إن ربنا يريد ذلك.

ثم قام ليخفي دموعه..

وعلقَت بذهني تلك الكلمات وأنا لا أفهمها.. ثم بدأت أشعر باليتم لأسباب هينة جدًّا.. ستجد دائمًا اليتيم يشعر بيتمه من أشياء بسيطة جدًّا.. ولكنها تظل معه عمره كله تذكّره أنه ناقص شيئًا.. ناقص أمًّا.. أو أبًا...

وستجد يتيمًا يشعر بيتمه جدًّا عندما تطلب المدرِّسة حضور الأب في مجلس الآباء.. وستجد يتيمًا يشعر بيتمه لأنه ليس له ماما تحكي له حكاية قبل النوم مثل زميله.. وتجد يتيمًا آخر

يبكي إذا سأله أحدهم: بابا بيشتغل إيه يا حبيبي؟.. بل إني في الثانوي، قالت لي صديقة إنها تشعر جدًّا بيتمها عندما تجهز لنفسها سندوتشات الصباح ولا تجدها جاهزة مثل جميع الطالبات..

أسباب هينة جدًّا.. بسيطة جدًّا.. ومختلفة ومتنوعة جدًّا.. تجدها في طفولة كل يتيم... أشياء تصنع شيئًا ما مختلفًا في قلبه.. شيئًا لا أدري ما اسمه.. ولا كيف أصفه.. تجعله مختلفًا عن الآخرين.. فتجد في عينيه شيئًا ما يجعله مميزًا..

إن هذا ليس مجرد تخيل.. أقسم أني أستطيع أن أميز أي يتيم من عينيه.. مهما كان محاطًا بالحنان والاهتمام.. كلنا لنا نظرة واحدة.. ولا يتعرف عليها إلا يتيم مثله..

صفة مشتركة تجمعنا نحن أبناء حزب اليتم.. هؤلاء الذين لم يروا أحدًا من أبويهم نهائيًّا.. نظرة أو لمعة مميزة.. أستطيع دائمًا أن أعرف منها أن هذا الرفيق لي.. لم يعرف أمه أو أباه..

أما أنا.. فالسبب الهين الذي كان يحرك يتمي وأنا طفلة مختلف.. هين جدًّا.. وبسيط جدًّا.. وموجع جدًّا..كان السبب هو ضفيرة شعر!!

أبي كان وما زال كل حياتي.. كان يقوم بكل أدوار الأمومة معي بمنتهى الاهتمام.. كان هو الذي يدخل بي إلى

الحمام لأستحم.. وهو الذي يجلس بجواري حتى أنتهي من طعامي.. وهو الذي يذاكر لي دروسي بعد ذلك.. ولكنه لم يكن أبدًا يجيد صنع ضفيرة شعري...

كانت دائمًا ضفيرتي غير مضبوطة.. وكثيرًا ما كان ينفلت شعري منها وأصير مهوَّشة الشعر كئيبة المنظر.. وكنت أقف في طابور الصباح أدور بعيني أتفرج على ضفائر زميلاتي.. وأشتهي ضفيرة جميلة مثلهم.. وأشعر بالنقص.. وأبكي كل صباح لأبي وأنا أطالبه بضفيرة غير مكوَّرة ومعرَّجة.. وكان هو يحاول دائمًا.. وكان يفشل دائمًا.. وأخرج بضفيرتي المنبعجة السخيفة وأنا أبكي...

بل إن أبي حتى يتخلص من مشكلة شعري أقنعني بعد ذلك بموضة الشعر القصير.. وقص لي شعري مثل الأولاد.. ولم أحب نفسي أبدًا بالشعر القصير وقتذاك.. ولكنه كان أهون عندي من خروجي بضفيرتي المشوهة.

كلما كبرت أكثر كلما احتجت أمي أكثر.. وكم تخيلت في مواقف معينة كثيرة أن الأمر كان سيكون أجمل بوجود أمي.. وخصوصًا مع آلام الوضع.. كنت وأنا ألد أبنائي دومًا أتذكر أني يتيمة.. وأني أحتاج في هذه اللحظة.. حتى مع كثرة المحيطين بي.. أحتاج أمًّا.. أمًّا فقط..

ولكن أمي كانت في السماء..

أيضًا أتذكر دومًا – وبدون إرادة مني – مسألة يتمي كلما غسلت شعري..

صنعت لنفسي عندما كبرت ضفائر جميلة.. وصنعت لابنتي ضفائر أجمل.. ولكن كنت أحن دومًا أن أجلس بين يدي أم وأترك لها شعري تشده وتضفره.. وأشعر بلمس أصابعها وهي تصنع لي ضفيرتي.. وحتى أحقق ذلك كنت أمرح مع صديقاتي وأطلب منهن أن يصنعن لي ضفيرة.. وكن يصنعن ضفائر جميلة.. ولكن أبدًا ما ارتوى هذا الحنين لدي.. على الرغم من جمال الضفائر؛ فإن هناك شيئًا ناقصًا يجعلني لا أسعد بها..

وذات يوم.. في دعوة كبيرة للغداء صنعتها حماتي في بيتها دعت إليها كل أبنائها.. وبعد الغداء جلس الرجال يلعبون الطاولة.. والصغار يتبادلون نغمات المحمول.. والنساء يثرثرن في اللاشيء.. وكنت مثقلة من الطعام.. وقد هاجمني النعاس؛ فتسللت من الجمع إلى غرفة حماتي أستريح قليلًا.. وعندما فتحت الباب كانت هي في حجرتها ومعها إحدى حفيداتها بين يديها.. وكانت تصنع لها ضفيرة..فقلت لها إني جئت لأستريح.. فرحبت بي.. وجلست أرقبها وأنا لا أستطيع أن أحيد بعيني عنها.. وعندما انتهت لم أقاوم رغبة طفولية.. رغبة يتيمة بداخلي...

قلت لها بمرح ظاهر وبقلب باكٍ يتيم: ممكن يا طنط تعملي لي ضفيرة أنا كمان؟

ولأنها طيبة جدًّا وأنا أحبها جدًّا.. ضحكت في مرح وقالت: من عيني يا أم محمد.

بعد دقائق كنت قد غسلت شعري بعجلة ولهفة.. وأصبحت تحت قدميها.. وقد أغلقت باب الحجرة حتى انفرد بها وبإحساسي.. وبدأت هي...

ومن أول لمسة عرفت ما كان ينقصني مع صديقاتي، ومع عاملة الكوافير، ومع أي أحد صنع لي ضفيرة..

كان في لمس أصابعها حنان يتسلل منها إلى خصلات شعري.. ومنها إلى مسام رأسي..ومنها إلى أعصاب جسدي.. ومنها إلى كياني كله.. فاسترخيت تمامًا.. استرخى كياني كما لم أشعر من قبل.. ونعمت بإحساس لم أحيَ به من قبل.. وتمنيت لو بقيت عمري كله تحت قدميها.. أترك لها شعري تصنع به ضفيرة.. وأترك كياني تربت عليه بحنان وتهدهد طفولة كانت بلا أم..

وعندما انتهت حماتي من الضفيرة.. كنت أنا قد نمت..

رحلة أحمد

شربل طربية

وقف أحمد مطوّلًا أمام المرآة ذلك الصباح.. نادته أمه مرارًا ليأتي ويشرب القهوة التي بدأت تبرد.. كان شارد الذهن.. يتأمل انعكاس صورته كالشبح على المرآة.. لقد خسر الكثير من الكيلوغرامات منذ ذلك اليوم الذي بدأ فيه التمارين.. أراد أن يبتسم كما يفعل كل صباح ويستقبل النهار الجديد.. ولكنه لم يقدر على إجبار شفتيه الرفيعتين على الابتسام.. لم يكن حزينًا، ربما خائفًا أو متخوّفًا.. شوشت الأفكار ذهنه وأفقدته الراحة والصفاء الداخليين الذين لطالما تمتع وتفاخر بهما أمام أصدقائه المنشغلين دومًا بأمور لم يستطع قط هو أن يفهمها.

فتحت أمه الباب دون استئذان، رآها على المرآة،لم يغضب.. بل حيّاها كعادته ورافقها إلى الخارج..صبّت له القهوة وجلست قربه متعجبة من صمته غير الاعتيادي.. لم تتجرأ على سؤاله عن حاله.. بل استمرت بالنظر إليه عله يكلمها ويخبرها بما يشغل باله، قلب الأم لا يخطئ أبدًا.. وكانت تعرف أن أمرًا ما يجري ولا يجعلها مطمئنة البال.

نظر أحمد إليها وابتسم قائلًا: شو الأكل اليوم؟

تنهدت أم أحمد وقالت: شو بدك تاكل؟

انتظرت الرد مطولًا على سؤالها اليومي، لم يأتِ الرد، اكتفى أحمد بالابتسام.. شرب فنجانًا واحدًا من القهوة على غير عادته، ثم غادر المترل.. لم يقبّل أم أحمد.. فهو لم يقوَ على النظر إلى وجهها الأبيض وكأنه يخفي شيئًا رهيبًا.. نزل السلالم بسرعة.. ولم يلوح لها بيده كما يفعل كل صباح.. بل هرول مسرعًا نحو السوق هربًا من عينيها الحائرتين.. هزت خطواته أوراق الخريف الصفراء.. ويدي أمه وهي تحمل فناجين القهوة.. فأوقعتها وتناثر الزجاج على الأرض.. حيث رسمت بقع القهوة وجه رجل حزين!

ركب أحمد الباص متوجهًا إلى الكلية في الطرف الآخر من المدينة.. حيث كل شيء أسهل والحياة أفضل.. جلست قربه رانيا وسألته عن والدته.. لم يجبها، كان يتأمل من زجاج الباص القديم.. المنظر الأحب إليه.. في طرف المدينة التي يعيش فيها تلة صغيرة تكسوها شجيرات خضراء ومثمرة.. انطلق الباص وصوت محركه الألماني العتيق يهدر ويزعج الأحاديث الصباحية للطلاب والطالبات، مر الباص ذلك الصباح قرب بستان للزيتون؛ إذ أجبرته القوى الأمنية على تغيير مساره وسلوك طريق فرعية.. في البستان مجموعة من العمال تعمل في

قطف الزيتون.. وعندما رأوا الباص يمر قرب حقلهم توقفوا عن العمل لتحية ركابه.. وقف أحد العمال يمسح العرق عن جبينه العريض وابتسم لأحمد الذي كان يتأمله والعمال الباقين.. توقف الزمن لبرهة.. كم يشبه ذلك العامل والده.. كان أبو أحمد يملك بستانًا مليئًا بشجر الزيتون في قريته الصغيرة على سفح التلة.. كان يساعده أحمد في موسم القطاف.. جميع أهل القرية ورانيا يعملون في قطف الزيتون.. كانت أيام يملؤها الدفء والطمأنينة.. إلى أن حانت تلك اللحظة الرهيبة...

كان الكل سعيدًا يستمع إلى صوت رانيا الجميل يصدح بموال جبلي لصباح.. أنهوا العمل باكرًا ذلك اليوم.. وفترة الاستراحة كانت أطول من العادة.. جلس أحمد بالقرب من رانيا ليصب الماء ويسقي أهل القرية بعد العمل الشاق تحت شمس تشرين الحائر.. كل شيء كان جميلًا.. ولكن لم يدم طويلًا.. عكّر صوت خشن من بعيد هذه الأجواء الجميلة.. لم يستطع صوت رانيا العذب التغلب عليه.. كان الصوت أخشن وأقوى.. وبات قريبًا جدًّا منهم الآن.. وقف مارد أصفر بغيض وراء شجر الزيتون.. وعندما رآه أبو أحمد وقف بوجهه طالبًا من سائقه الرحيل.. لم يجب السائق.. ربما لم يفهم لغة أبو أحمد.. بل تابع سيره بالجرافة الكبيرة نحو أشجار الزيتون.. مدعومًا بفريق من العسكر المدجج بالسلاح للانقضاض على كل من يتجرأ على الوقوف بوجه المارد.. تجمع أهل القرية

وراء أبو أحمد يساندونه ومستعدين لبذل حياتهم لحماية مصدر رزقهم.. وقف أحمد قرب والده وأمسك بيد أبيه المرتجفة.. أما بيده الأخرى فأمسك بعصا ليهاجم بها ويدافع عن أرضه.. تقدمت الجرافة ومعها جيشها واقتلعت الأشجار العجوز دون أن تكترث إلى صراخ النساء ومحاولات رجال الحقل العقيمة للدفاع عن مئات السنين من الأشجار.. دارت معركة غير متساوية بين العسكر وأهل القرية.. أسر الجنود كل شاب حاول مقاومتهم وأحمد.. التهمت الآلة معظم الأشجار.. وبقيت واحدة وقف قربها أبو أحمد ليحميها من جنون المارد وخدّامه.. كانت الشجرة صغيرة وضعيفة لم يمض على غرسها أكثر من سنة.. ورفض أبو أحمد أن يبتعد عنها.. بل أصر على البقاء قربها والذود عنها بحياته إن تطلب الأمر ذلك.. اقتربت الآلة منه حتى كادت تلامس وجهه المتعب وعينيه الصارختين بتحدٍّ كبير.. أفلت أحمد من قبضة الجندي وركض نحو والده ليخلصه من الموت المقترب نحوه.. لم تشبع الآلة من التهام الأشجار كلها بل أرادت القضاء على من غرسها واعتنى بها طوال حياته.. لم يلن بكاء أم أحمد ولا توسلات رانيا قلوب الوحوش بل زاد من قوتها وغطرستها.. ولم يردعها عن التهام كل من وقف بطريقها.. رحل المارد الأصفر ومعه خدمه باتجاه الطرف الآخر من المدينة مُخلفة وراءها الحزن والأسى.. وقعت شجيرة الزيتون ومعها والده.. زينت جبينه العريض بأوراقها وحبيبات من التراب.. وكأنها تشكره على الدفاع عنها

وتدعوه إلى السفر معها حيث البساتين لا تنتهي.. والمارد الأصفر في الطريق يضيع.. بكت أم أحمد كثيرًا ذلك اليوم.. قبّل أحمد جبين والده.. ووعده بغرس العشرات من شجر الزيتون في أرضه.. ثم نظر إلى السماء.. أراد أن يخاطب الله، ولكنه لم يجد الكلمات.. أزاح وجهه وحمل والده ووراءه أهل القرية المنهكين من الحزن.

بشو عم بتفكر؟.. سألته رانيا بمحاولة يائسة لإعادته إلى عالم الواقع.. رأت بعينيه دمعة غالية.. وبالرغم من محاولاتها العديدة لمعرفة السبب وراء هذه الدمعة الغالية.. امتنع أحمد عن الرد على أسئلتها الكثيرة والقلقة..

وصل الباص إلى حاجز للتفتيش.. دخل رجال من العسكر إلى الباص.. وكخراف مطيعة أجبروا الطلاب والطالبات على الترجل من الباص والخضوع للتفتيش.. وقفوا ووجوههم إلى الحائط الإسمنتي الطويل الساخر.. لا يبالي هذا الحائط المقيت بمشاعر السكان وحياتهم، يقف كالعملاق دون رحمة أو رأفة ويهزأ بكل من يمر بالقرب منه ويمزق دون اكتراث روح المدينة والروابط بين شعبها.. فقد جبل فيه من بناه كل الغضب والعنصرية.. فجعلوه وحشًا متربصًا بأهل الأرض وأرواحهم.. أغمض أحمد عينيه وتمنى أن لا تلمسه أيدي العدو وأن لا تدنو من جسد حبيبته رانيا.. وحدها معجزة إلهية من زمن مضى

تستطيع أن تقلب المعادلة.. اقتربت الكلاب السوداء كأصحابها وقامت بشم كل طالب وكل طالبة على حدة.. اقترب الجندي ومعه كلبه من رانيا ولمسها بطريقة غير لائقة وتحسس الأماكن المحظورة من جسدها المرتجف تحت نظرات أحمد العاجز عن الدفاع عنها.. كتمت رانيا دموعها وصراخها كي لا توقع أحمد بالمشاكل.. ولكن دم أحمد كان يغلي كأشعة الشمس الحارقة فانتفض وركض نحوها ليخلصها من أيدي الجندي.. ولكن الكلاب كانت أسرع منه.. فنهشته ومزقت ثيابه قبل أن ينهرها الضابط ويأمر الجميع بالمغادرة.

تابع الباص رحلته بينما حاولت رانيا تضميد جراح أحمد والتخفيف عنه.. ولكنه كان مستغرقًا بالتفكير بصمت حزين ومتعب.. إلى متى سيتغلب الشر على الخير على هذه الأرض؟ لم لا يسمع الله صلواتنا؟ وحده الشر يغلب الشر...

المدينة المُقسمة متعبة.. وروح أحمد تناجي الخلاص.. وتريد أن تخفف من آلام رانيا وتمسح عنها دموع القهر.. وتنتقم لشرفها وشرف جميع نساء ورجال المدينة المنقسمة.. وبعد أكثر من ثلاث ساعات من التفتيش والرحلات الشاقة.. وصل الباص إلى الطرف الآخر من المدينة.. ترجّل أحمد من الباص وتابع رحلته سيرًا على الأقدام.. لحقت به رانيا وكتبها القديمة تلوح بالهواء.. اجتازا معًا حواجز التفتيش والروتين اليومي

الذي لا ينتهي.. سار أحمد بخطوات سريعة وكأنه يهرب من حبيبته.. نادته رانيا بأعلى صوتها وحاولت مجاراة خطواته.. ولكن أحمد ذاب في زحمة الناس وتشعب الشوارع.

جفت الدمعة من عين أحمد.. لامست النسمات الضعيفة وجهه الغاضب وأخبرته مئات القصص وأطلعته على أسرار الأرض والشعوب.. وكلمته عن الحرية والحزن والحياة والموت.. أخذت معها دمعته وعبرت بها القرى والحقول الفارغة مخترقة الحواجز وفوق الجدار الفاصل هازئة منه وغير مكترثة به وبقوته الصامتة إلى منزل أم أحمد حيث كانت جالسة مشوشة التفكير.

لم يدخل أحمد إلى الكلية، بل ذهب إلى السوق التجاري الذي بدأ يكتظ بالمتسوقين.. وقف قرب أحد المحال منتظرًا القدر كي يعلن اللحظة التي سيغير فيها مجرى الأمور.. اقترب منه أحد الرجال وطلب منه أن يلحق به.

في هذه الأثناء سألت رانيا كل من في الجامعة عن أحمد، لم يره أحد اليوم ولم يعرف عنه أحد شيئًا حتى أعز أصدقائه.. بحثت عنه في كل مكان ولكن من دون جدوى.. لم يأت أحمد إلى الكلية اليوم.

وجد أحمد نفسه عارٍ أمام مرآة جديدة ومختلفة عن تلك التي تعوّد أن يرى نفسه فيها كل صباح.. اقترب منه الرجل وتمتم

في أذنه كلمات غير مفهومة.. هز أحمد برأسه موافقًا وسلم جسده إلى القدر غير المكتوب.. ارتدى ثيابه وخرج ممتلئًا.. لم يعد نحيفًا.. لف الرجل حول خصره حزامًا أسود جعل بطنه ينتفخ.. ودعه الرجل بقبلة واختفى بين الجموع في السوق التجاري.

لم تقوَ رانيا على التركيز، كان بالها مشغولًا بالتفكير بأحمد وتتساءل عن مكان تواجده، وفي داخلها إحساس رهيب بأن شيئًا خطيرًا سيحدث.. أغلقت كتابها وخرجت من الصف دون استئذان ونزلت إلى الشارع لتفتش عن أحمد.. بحثت عنه في وجوه المارة وفي الأزقة الضيقة والشوارع العريضة، سألت كل رجل وكل امرأة عنه، سألت كل باب وكل حجر عنه ورغم ذلك لم تجده...

بينما رانيا تبحث عن أحمد.. وقف هو وسط الشارع المزدحم يتأمل المارة ويبحث عن وجه ما يذكّره بأرضه البعيدة وأهله وشعبه.. ولكن لم يجد أمامه سوى وجوه قبيحة غير مبالية.. وجوه قاسية كوجوه هؤلاء الجنود يرمقونه باستغراب واحتقار.. يعرفون أنه غريب عنهم، لا ينتمي إليهم ويتساءلون عما يفعله بينهم.. وسطهم.. وحولهم.. أراد أن يعتذر.. أن يقول شيئًا لهؤلاء الوحوش الصغيرة.. ولكنه لم يقوَ على الكلام.. وعندما نطق ببعض الكلمات لم يفهمه أحد.. ظنوه مجنونًا تائهًا بأرض ليست بأرضه.. ولربما كان كذلك...

على بعد بضعة أمتار فقط كانت رانيا قد بدأت تشعر بالتعب واليأس.. ولم تجد سبيلًا للتخفيف عن نفسها سوى بالبكاء.. لقد كانت خائفة.. فقد ابتعدت كثيرًا عن الكلية وحتى عن ذلك الحائط الذي يفصل بين قريتها والجانب الآخر.. ولا تعرف طريق العودة.. ولا تريد العودة دون أحمد.. فراحت تنادي بأعلى صوتها المُتعب عله يسمعها ويأتي لإنقاذها فمعه تشعر بالأمان والحماية.. ووحده بمقدوره إعادتها إلى دفء قريتها الحساس وحضنه الحنون.

لم يسمع أحمد.. فربما قد أقفل أذنيه كما أقفل قلبه.. وحجبه عن أحب امرأتين إلى قلبه؛ والدته ورانيا.. وضع يده بجيبه الأيمن وأغمض عينيه المتعبتين ومرت الصور برأسه.. صور كثيرة جميلة؛ كصورة أمه وصورة رانيا.. وصور أخرى مؤلمة جدًّا؛ كصورة والده المتوفى وبستان الزيتون اليابس.. لم يكترث للناس حوله والتي كانت تتدافع كالأحصنة المغرورة والمجنونة.. ولا حتى لرانيا المبتسمة التي أصبحت خلفه تمامًا فرحة بلقياه مجددًا.. وضعت يدها على كتفه وبصوتها الضعيف وموالها الضائع نادته.

كان في جيب أحمد هدية صغيرة إلى أهل المدينة حيث وقف كالتمثال دون حراك أو أدنى شعور بما يجري حوله... وفي هذه اللحظة انتهى كل شيء...

خبر عاجل:

فجّر انتحاري نفسه اليوم في أحد أسواق المدينة المكتظة..

لا معلومات حتى الآن عن عدد الضحايا...

وقف أبو أحمد حزينًا في حقله اليابس.. اقترب منه أحمد وقبل يده الباردة.. بينما جلست رانيا تغني موالًا حزينًا بكلمات غير مفهومة على صخرة سوداء ليست بمريحة!!

أما في منزلها في الطرف الآخر من المدينة.. جلست أم أحمد تبكي قرب المائدة تنتظر عودة أحمد من رحلته اليومية...

في فيلا الساحل الشمالي

شيماء مهران

عندما يجتمع السكون والظلام يتواجد الخوف، وعندما يخلو المكان من البشر تسكنه أشياء أخرى...

هذا كان اعتقاد مُلَّاك فيلا الساحل الشمالي، الذين اشتروا الفيلا حديثًا من صاحبها اليوناني الذي هاجر بعد بيعها مباشرة.. ولهذا قرروا تعيين غفير ليحرس المكان؛ حتى تحضر الأسرة لتجهيز المكان لقضاء الإجازة الصيفية..

ذهب الغفير ومعه زوجته وابنته إلى الفيلا، واستقروا في مبنى صغير مكون من حجرتين في حديقة الفيلا.

كانت القرية السياحية التي تقع بها الفيلا خالية تمامًا من السكان في هذا الوقت من الشتاء، وكانت القرية تطفئ أنوار الممرات الصغيرة التي تفصل بين الفيلات وبعضها.. فلا يتبقى من معالم القرية سوى أشباح مبان رابضة في صمت وسط قرية مهجورة.

أما بالنسبة إلى مسكن الغفير؛ فلا يضيء المكان سوى أنوار الحديقة الصغيرة التي يتوسطها حوض للسباحة خال من المياه، وأنوار الحجرتين اللتين يسكن فيهما الغفير وأسرته.. أما الفيلا

فداخلها غارق في ظلام دامس.. كان المكان - عمومًا - غارقًا في صمت رهيب، لا يسمع أي صوت سوى صوت الأمواج العاتية والرياح العاصفة.

كان الغفير وأسرته يعتبرون أنفسهم ملاك القرية الحقيقيين؛ فهم مقيمون في المكان ولا يتركونه أبدًا.. في النهار تجهز الزوجة الطعام، وتنظف الحجرتين، ويلعب الغفير مع ابنته.. وفي الليل يتدثر الثلاثة بجانب بعضهم ليحتموا من الصقيع الذي لا يقاوم في هذا الوقت من العام.

كانوا يقضون أيامهم - عمومًا - في هدوء، لا يكاد يعكر صفوه سوى الحادث الذي يتكرر في منتصف ليل كل يوم، في هذه الساعة تحديدًا، يقاطع صوت الأمواج والرياح صوت غريب.. كأن شخصًا ما يقفز في حوض السباحة الخالي من المياه، ولكن الأسرة تسمع صوت المياه.. كل يوم تسمع صوت القفزة في حوض السباحة، وتناثر قطرات المياه من الحوض الجاف على حواف الحوض.. وبعدها ينقطع التيار الكهربائي عن الحديقة ومسكن الغفير، ويظل هكذا لخمس دقائق أو أقل، ثم تعود الكهرباء من تلقاء نفسها...

مع قرب بداية شهور الصيف أرسل ملاك الفيلا المفاتيح إلى الغفير؛ لتجهيزها لاستقبالهم قريبًا، وطلبوا منه أن يملأ حوض

السباحة؛ على أن يحافظ على محتويات الفيلا، وخاصة التحف القيمة التي اشتروها من صاحب الفيلا اليوناني، ومن دقة تجهيز المكان وفخامته لم يقوموا بأي تجديدات على المكان.

قررت أسرة الغفير أن تتعاون في تنظيف الفيلا.. في الصباح قام الثلاثة بتنظيف الطابق العلوي أولًا، وكانت مساحته صغيرة، مكونة من حجرتي نوم وصالة، يوصل إليها ممر من بعده سلم يؤدي إلى الطابق الأرضي الذي كان يتكون من صالة كبيرة مليئة بالتماثيل الإغريقية لملائكة وأطفال يونانيين.. كما يوجد أيضًا حمام ومطبخ.

بعد الانتهاء من التنظيف، قاموا بغلق المكان من جديد بالمفتاح، وأكمل الغفير العمل بتنظيف حوض السباحة، وملئه بالمياه.. وأصبحت الحديقة والفيلا من الخارج لهما مظهرًا جديدًا، وكأن المكان امتلأ بالحياة.. في هذه الليلة، وبعد الانتهاء من أعمال التنظيف، واحتفالًا بهذا الإنجاز، قامت الزوجة بتجهيز عشاء شهي، وجهزت مائدة صغيرة بجانب حوض السباحة الممتلئ بالمياه الزرقاء المتلألئة.. كان الجو ليلتها يمتاز بالدفء.. جلست الأسرة حول المائدة يأكلون ويتسامرون، وسرقهم الوقت، ونسوا الحادثة اليومية؛ حتى دقت الساعة منتصف الليل، وحدثت القفزة اليومية بجانبهم؛ حتى إن قطرات المياه تطايرت عليهم وتساقطت على طعامهم، وشاهدوا - لأول مرة - حوض السباحة الممتلئ بالمياه،

وبداخله شخص خفي لا يرى بالعين، ولكن تناثر المياه يوحي بأن شخصًا يسبح بطول الحوض ذهابًا وإيابًا.. حينها تراجعوا خوفًا وابتعدوا عن الحوض خطوات قليلة، ولكن انقطاع التيار الكهربائي جعلهم يتسمَّرون في أماكنهم.. ومع اختفاء المشهد المخيف وسط الظلام ظل صوت ضربات المياه وتناثرها على وجوههم مستمرًّا قليلًا، ثم توقف فجأة وعادت الكهرباء من جديد.. انهارت الطفلة من الخوف، وظل الوالدان يحاولان تهدئتها إلى أن نامت، وفي هذه الليلة قام الغفير بغلق باب غرفتهم بالمفتاح، ولكن - مع ذلك - لم يستطع الزوجان النوم، وأخذا يفكران في إبلاغ ملاك الفيلا ليأتوا، ولكن بعد نقاش طويل، قررا أن ينتظرا حتى يأتي الملاك ليروا بأنفسهم.. وقررا أن يبيتوا بداخل الفيلا؛ احتماء من الحادث اليومي المرعب..

في مساء اليوم التالي ذهبت الأسرة لقضاء الليلة بداخل الفيلا لأول مرة.. تجمَّع الثلاثة في الطابق العلوي بداخل إحدى الحجرتين..

ولأول مرة منذ بداية عمل الغفير في هذا المكان شعرت الأسرة بالدفء وسط المفروشات الثمينة والسجاد الصوفي الذي يغطي الأرضيات.. كانت الحجرة صغيرة، مكونة من سرير مزدوج، يقابله كرسيان متجاوران، وخلفهما شباك يطل على حوض السباحة، إلى جانب دولاب صغير في الركن الآخر من الغرفة.

نامت الزوجة والابنة مبكرًا؛ استمتاعًا بدفء المكان والسرير المريح، أما الغفير فقد ظل ساهرًا في انتظار الحادث اليومي من وراء الشباك المغلق، راقب الموقف في الحديقة، وبعد عودة التيار الكهربائي اطمأن مع هدوء الوضع في المكان بأكمله، وذهب إلى النوم بجانب زوجته وابنته..

وأثناء نوم الثلاثة كان لكل منهم كابوسه المفزع...

حلمت الزوجة أنها استيقظت فجأة؛ لشعورها بأن شخصًا غريبًا في الحجرة.. فتحت عينيها؛ لتجد قبالتها امرأة وشابًّا ذا ملامح أجنبية يجلسان على الكرسيان قبالة السرير.. أخذا ينظران إليها بلا تعبيرات على وجهيهما.. فقط جالسان ينظران إليها بصمت، ولكن الزوجة عادت إلى النوم من جديد؛ فهي فقط تحلم..

أما الزوج، فقد نام نومًا مضطربًا، وكأن شيئًا ما يريد إيقاظه بكافة الوسائل.. فتارة يشعر أن شخصًا ما يقف بجانب السرير يحاول إيقاظه، ويهتف بغضب وتحذير:خذ أسرتك واخرج من هنا.. وتارة أخرى يشعر وسط نومه بمن يحاول سحبه من قدميه ليسقطه عن السرير، وكان يشعر وسط نومه بضجيج داخل أذنيه، وكأن هناك أسرة كبيرة تقيم حفلة سمر بالطابق الأرضي...

بالنسبة إلى الابنة، استيقظ الوالدان فجأة على صراخها وندائها على والدها.. احتضنت والدها وهي تبكي من الخوف. وأخبرت والديها أنها استيقظت على صوت ضجيج أشخاص في الطابق الأرضي؛ لتفاجأ برجل أجنبي يمسك في يده سكينًا ويوجهها إلى عنق والدها، وكأنه سيذبحها؛ لولا صراخها الذي جعله ينصرف..

أقنعها والداها بأن ما رأته ما هو إلا كابوس مفزع، وعندما عادت الابنة إلى النوم أخبرت المرأة زوجها بما رأته هي أيضًا.

أصبحت على اقتناع تام بأن هناك شيئًا شريرًا في هذا المكان؛ شبحًا أو جنيًّا، لا تدري ولكنها رأت الشخص الأجنبي هي أيضًا، ولكن الغفير رفض بشدة تصديق هذا الكلام، وأخذ يحاول إقناع زوجته بأن كل هذه الأحداث ما هي إلا كابوس مرعب.

بعد قليل سمع الزوجان صوت أشخاص بالطابق الأرضي، وكأن الحياة دبت بالتماثيل الموجودة بالأسفل.. قرر الغفير النزول للقيام بجولة في المكان ليعرف ما هناك..

فتح باب الحجرة بحذر، وألقى نظرة إلى الصالة الصغيرة، ولكن لم يكن هناك شيء غريب.. خرج إلى الصالة، وأغلق الباب وراءه، وعلى ضوء الصالة اهتدى إلى طريقه على السلم

المؤدي إلى الطابق الأسفل، ومع خفوت قوة الضوء، مع نزوله حيث ظلام الطابق الأرضي، وقف يتأمل صمت المكان قليلًا؛ حتى تعتاد عينيه على الظلام، فيتبين الأشياء على ضوء الحديقة المتسرب إلى الداخل عبر النافذ المغلقة، كان المكان أيضًا غارقًا في سكون تام.. سار بحذر ممسكًا بيده عصًا خشبية غليظة قاصدًا الوصول إلى مفتاح الضوء.. ولم يكن هناك أي شيء مريب لحركة أو صوت.. اقترب من أحد التماثيل الملائكية الرابضة وسط الصالة الواسعة، وتحت الضوء الضعيف للمكان شاهد وجه التمثال وقد تحول إلى وجه ذي تعبيرات مفزعة، وكأن شيئًا ما بداخله يحرك ملامح وجهه إلى تعبيرات فزعة وملامح شريرة..

ومع مفاجأة الغفير وفزعه ضرب بعصاه بقوة رأس التمثال المخيف، ولكن الوجه ظل ينظر إليه بفزع، وكأنه خائف من شيء ما.. وفجأة، رأى ما جعله هو الآخر يتسمر في مكانه من الفزع...

كانت هناك امرأة تقف بجانب النافذة المغلقة تدخن سيجارة وكأنها تنظر إلى الحديقة، وشاب أجنبي ذو ملامح يونانية قوي البنيان، يمسك سكينًا كبيرًا، يقترب من وراء ظهر المرأة لينقض عليها، وبعد صراع بسيط من المرأة، تفقد السيطرة على حركتها، فيطرحها الشاب أرضًا، ويوجه السكين إلى عنقها...

هنا يصل الغفير متحاملًا على نفسه إلى جوار النافذة والمعركة دائرة ليضع يدًا مرتعشة على مفتاح الضوء، ليشتعل المكان بضوء مبهر للعيون، أخذ الغفير لحظة، فأغلق عينيه؛ ليفتحهما فيجد الشاب والمرأة لا يزالان على وضعهما، ولكن لا يصدران حراكًا.. فقط ينظران إليه بدهشة، وكأنه قاطع مشهدًا تمثيليًّا دراميًّا يستحق الترك، وكأنه رأى ما لم يكن من المفترض أن يراه، وكأنهما اكتشفا من هو الشاهد على الجريمة فاختفيا بعد ثوان قليلة من إضاءة الضوء...

لم يأخذ هذا المشهد سوى ثوان، ولكنه بالنسبة إلى الغفير كان دهرًا من الزمان.. وهنا انقلب المكان إلى ساحة معركة.. كل شيء يتطاير من مكانه.. لا شيء ثابت في مكانه سوى التماثيل الصغيرة الفزعة الملامح.. تطايرت التحف والكراسي موجهة إلى الغفير محاولة أن تصيبه.. جرى الغفير إلى خارج الفيلا تاركًا كل شيء وراءه حتى زوجته وابنته.. بعد محاولة مضنية منه في البحث عن هاتف قام بالاتصال بالشرطة لتنقذ أسرته، واتصل أيضًا بملاك الفيلا وانهار في مكانه..

في صباح اليوم التالي حضر أصحاب الفيلا، وكانت الشرطة قد حررت محضرًا بالحادث الغريب، وانصرفوا تاركين أسرة الغفير منتظرين ملاك الفيلا ليرحلوا بعد تسليمهم مفاتيح المكان.. لم يصدق ملاك الفيلا كلام أسرة الغفير بالطبع؛ فقد

ساد المكان الهدوء مع طلوع النهار، واتهموا الغفير وأسرته بإتلاف الفيلا، وقاموا باستدعاء الشرطة ثانيًا، واتهموا الغفير فيما حدث لفيلتهم...

حضر إلى الفيلا ضابط الشرطة للمرة الثانية، وقابل الملاك وحرر محضرًا ضد الغفير، وبعد ذلك رحل الغفير مع أسرته مؤكدًا أن هذا المكان مع قدوم الليل إن لم يمتلئ تكسيرًا وتحطيمًا - بعد أن تكسر كل شيء بالفعل - فسوف يمتلئ صراخًا وعويلًا لامرأة تذبح، وضحكات شيطانية للقاتل، وهذا ما ظل يتردد طوال الليل، وسمعته الزوجة وابنتها بعد خروج الغفير من الفيلا هربًا بحياته.

ظل الملاك بعد هذا الكلام يكذبون الغفير، ولكن الضابط حكى للأسرة قصة الفيلا، والحادث الغامض الذي جعل المالك اليوناني يهاجر ويرحل من المكان...

كان الرجل اليوناني - مالك الفيلا الأصلي - لديه ابن شاب وزوجة مصرية، كان الابن يشعر بأنها دخيلة على أسرته وحياته، وكان يلح على والده كثيرًا أن يبيعا أملاكهما في مصر ويعودا إلى اليونان، ولكن الوالد كان يحب مصر كثيرًا؛ فكان يرفض رغبة ابنه..

كان يأخذه لقضاء فصول الصيف بفيلا الساحل الشمالي؛ ليشعر الابن بجو البحر، وكأنه في اليونان، ولكن الشاب لم يقتنع يومًا..

خافت الزوجة أن يقتنع زوجها اليوناني بفكرة ابنه، ويقرر الهجرة وبيع أملاكه وتركها وحيدة فقيرة.. وقررت في لحظة شيطانية أن تتخلص من ابن زوجها؛ حتى لا يتبقى لزوجها سواها.. كان الشاب يحب السباحة في حوض السباحة كل ليلة قبل أن يذهب إلى النوم في منتصف الليل.. دبرت الزوجة وخططت، وفي اليوم الرهيب قامت بفك لمض الإضاءة في الحوض، مع الإبقاء على توصيل التيار الكهربائي، ومع القفزة اليومية للشاب صعقته مياه الحوض، وتوفي في الحال، وانقطع التيار الكهربائي جراء الحادث، وبالطبع كان هناك تحقيقات كثيرة، ولكن قبل التوصل إلى مدبر الحادث تمت الحادثة الثانية بعد الحادثة الأولى بشهر واحد، وكانت هذه المرة حادثة انتحار الزوجة؛ فقد وجدها زوجها بداخل الفيلا مذبوحة وممسكه بالسكين في يدها.. وهنا أغلقت القضية بعد انتهاء التحقيقات وإثبات أن الزوجة هي قاتلة الشاب، وأنها انتحرت شعورًا منها بالذنب الذي اقترفته...

كان الرجل اليوناني قد حكى للضابط التفاصيل المجهولة في القصة قبل أن يهاجر؛ أخبره بأن زوجته لم تنتحر، ولكن ابنه قتلها انتقامًا منها، وأن شبحه لا زال في الفيلا، وأنه يراه ويسمعه، ولكن بعد فترة شبح زوجته بدأ يظهر في المكان أيضًا.. فقرر أن يهاجر كما كانت رغبة ابنه، ويترك المكان؛

حيث إن وجوده مع شبحين غاضبين كارهين لبعضهما يشكل خطرًا عليه..

الضابط لم يصدق الكلام عن الأشباح، ولكنه رأى أن من واجبه إخبار أصحاب الفيلا بما يعرف، ولهم هم وحدهم القرار...

مع حلول ظلام الليل نام جميع من بالفيلا ملء جفونهم من التعب، وحلموا... لكل واحد كابوسه الخاص، واستيقظوا فجأة مرهقو الأجساد، وكأنهم خارجون من معركة، وكأن أحدًا ما ضربهم.. أفاقوا من نومهم على شيء ما فتح أبواب الحجرات عليهم؛ فسمعوا جهاز التسجيل بالطابق الأسفل، أحد ما – ليس من ملاك الفيلا – أداره على أغنية باللغة اليونانية ذات طابع كلاسيكي.. وتسمر الجميع على أسرَّتهم لا يستطيعون الحراك، ومع كل الأحداث السابقة صدق الجميع على الفور أن شيئًا ما شريرًا يسكن معهم بالمكان، بل وهو مالك الفيلا الأصلي.. قرروا الرحيل فورًا، ولكن بعد قليل توقف صوت الغناء، وبدأت وصلة من الصراخ والعويل لا تنتهي، يتخللها ضحكات شيطانية شريرة.. ولم يجرؤ أحد على النزول للأسفل ليرحل؛ حيث لم يستطع أحد أن يمر وسط زحام الصرخات..

مع أول ظهور للضوء في فجر اليوم التالي رحل أيضًا أصحاب الفيلا، تاركين وراءهم فيلا الساحل الشمالي، بعد أن رأوا بأعينهم ما حدث..

لم يعد ملاك الفيلا ثانيًا إلى هناك، ولكنهم قرروا الاستفادة من المصطافين الأغراب عن المكان، وتأجير الفيلا إلى من يدفع أكثر..

زوج جديد

عبد المنعم البدري

خرجت من عملها الحكومي مبكرًا سلكت الطريق إلى السوق لشراء احتياجات البيت كعادة شهرية تتزامن دائمًا مع المرتب الذي لا تسمح عدد أوراقه برفاهية تكرار هذه العادة إلا في نفس الميعاد من الشهر التالي، وربما لا يسمح إذا تدخلت مؤثرات خارجية.

شاردة بعينها تنظر إلى كل شيء وكأنها لا تراه.. فجأة وقع نظرها عليه.. رمقته بطرف عينها وكأنها تتحاشى النظر إليه. .استوقفها.. فأخذت تتأمله من بعيد، ثم تقدَّمت قليلًا وأعادت النظر إلى هذا الذي يستقر أمامها خلف الحاجز الزجاجي في أناقة واضحة.. ألقت نظرة سريعة على المحيطين به، كانوا جميعًا يبدو عليهم حسن المظهر، وربما كانوا أكثر منه أناقه، لكنه هو الذي لفت انتباهها وحرك غريزتها الإنسانية، نظرت إلى الأرض متألمة، ثم عادت تنظر إليه..

كم تتمنى لو تحصل على هذا الزوج الأنيق الذي - بالتأكيد - سوف يريحها من المعاناة التي تراها مع الزوج الحالي الذي أصبح منهكًا بفعل الزمن والعمل الدؤوب لمدة خمس

سنوات؛ أي من وقت ارتباطه بها، وقتها كان هو أيضًا في قمة أناقته وقوته، ولكنه الآن لم يعد يصلح.. لقد انتهى عمره الافتراضي و لم يعد قادرًا على أداء واجباته كما يجب، وهي قد تعبت وتحتاج إلى زوج جديد.. و لم لا يكون هذا الزوج من نصيبها؟! وقتها تستطيع أن تترك الزوج الحالي غير مأسوف عليه، وإن كانت ستحفظ له ذكراه الطيبة..

كان واضحًا أن شهوتها التي كانت خامدة كل هذه السنوات قد استيقظت فجأة مع رؤيتها له، وهو ما دفعها إلى التفكير في وضع رغبتها موضع التنفيذ.

كانت مترددة في الإقدام على الخطوة التي تلي الإعجاب، وهي التعبير عن هذا الإعجاب، ولكنها حسمت أمرها وقررت أن تتخذ الخطوة...

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- لوسمحت.. هيَّ الجزمة السودا اللي في الباترينة دي بكام؟

- أنهي واحدة يا ستِّي.. دي؟

- لأ اللي جمبها.

- آاااه.. دي بتسعة وستين جنيه.

- يااااه.. طيب شكرًا.

كان السعرالذي قاله البائع كفيلًا بإجهاض رغبتها التي تولّدت من لحظات، وجعلها تتراجع عن تنفيذها، بالرغم من أنها في هذه اللحظات تملك المال الذي يكفي لشراء الحذاء، ولكنها اعتبرت اقتطاع مبلغ سبعين جنيهًا من ميزانية أسرة مكونة من أربع أفراد قبل موسم الدراسة لشراء حذاء جديد لها قد يعتبر نوع من السَّفَه الذي يستوجب الحجر الفوري عليها من قبل أولادها الثلاثة الذين توفي والدهم من خمس سنوات.

نظرت إلى الحذاء نظرة أخيرة ثم أدارت ظهرها ومشت وهي تفكر في إمكانيه شرائه إذا دبرت ثمنه؛ فهي بالفعل تحتاجه بدلًا من حذائها الحالي الذي سوف يعرِّض قدميها للغرق عندما يحل الشتاء لكثرة فتحات التهوية التي أصابت نعله المهترئ أصلًا.. كما إنها تحتاج حذاءً جديدًا لكي تحضر به فرح ابنة أختها بعد أسبوعين.. كما أنها لم تشترِ أي شيء جديد من خمس سنوات، عندما خرجت مع زوجها قبل وفاته بشهر واشترت حذاءها الحالي بخمسة وثلاثين جنيهًا.. كانت تحاول أن تبحث عن مبررات تقنع نفسها بها بأهمية الحذاء الجديد،

وترد بها على أي اتهامات قد تنالها من ضميرها في حال إقدامها على تحقيق هذه الشهوة الشرائية.

ربما تستطيع شراءه من الحوافز التي سوف تقبضها الأسبوع القادم عقدت العزم على ذلك وليكن ما يكون، فهي بالفعل تحتاج إلى زوج جديد.... من الأحذية.

خرجت من عملها الحكومي مبكرًا بعد أن قبضت الحوافز، لم تفكر كثيرًا ولم تترك للتردد أي مجال.. ذهبت إلى محل الأحذية واشترت الحذاء...

عادت إلى البيت وهي في قمة سعادتها.. لم يكن بالبيت غير ابنها الأصغر ذي السنوات العشر.

- إيه رأيك في الجزمة دي يا إسلام؟

- يااااه.. جميلة قوي يا ماما.. جبتيها بكام؟

- لازم تعرف يعني؟.. جبتها بتسعين جنيه يا سيدي

- ياااااااه.. دي غالية قوي يا ماما.. ربنا يخليكي ليَّ.. فعلًا أنا كان نفسي في الجزمة دي من زمان عشان أروح بيها المدرسة.

- مبروك عليك يا حبيبي.. ياللا بقى روح نادي لإخواتك علشان نتغدى.

مسرعًا فتح باب الشقة وخرج مرتديًا حذاءه الجديد وهي تتابعه بعينيها، التي وقعت فجأة على حذائها القديم الذي يقبع أمامها.. أيقنت أنها لن تستطيع شراء حذاء جديد لها، وأن ارتباطها بحذائها القديم سيظل فترة أخرى من الزمن، بعد أن تحاول مداراة الثقوب التي طالته..

نظرت إلى حذائها القديم نظرة طويلة ثم بكت.

قصة قصيرة من أدب المقاومة

كيمياء الرأس

كلشان البياتي

الزمن كائن أسطوري منطوٍ على نفسه، منفتح على العالم، كثير الألقاب، متعدد المواهب، متقلب المزاج، كثير السمات: ثلجي.. هوائي.. جليدي.. زئبقي.. فسفوري..

لم يتمكن أحد من العلماء والباحثين وأولي الفكر والألباب وأصحاب العقول النيِّرة أن يتوصَّلوا ببحوثهم ودراساتهم وهذياناتهم وهلوساتهم إلى أن الزمن كسائر الكائنات كائن قابل للزوال، بإمكانه أن ينقرض، ويتلاشى من الوجود.. أخفقوا في إقناع البشرية بأن زمن الحروب.. زمن الانتصارات الساحقة وصنع الأمجاد التليدة.. زمن الهزائم والانكسارات والانقلابات التاريخية وحدها تحتفظ بصيرورته وديمومته، له قابلية نمو رهيبة، مثيرة للجدل.

نحن البشر كائنات بلا زمن، لا تحكمنا قوانينه الشريرة والأليفة.. فكرت مرارًا قبل أن أخطو خطواتي الجهنمية التي تشطبني من صفحات الزمن إلى ما وراء الفناء والذوبان.. خطوة استبدال رأسي برأس آخر.. كرهت الرءوس المألوفة..

الدائرية، البيضوية، المستطيلة، المقوسة التي تشبه الصفيح، المائلة للأعلى، رأس مثلث الشكل، قائم الزوايا، رأس لا يشبه رءوس العباد، ربما يشبه رأس قرد أو رأس عصفور، رأس بطريق أو رأس الضبع...

ولكن هل ينسجم رأس البقرة مع جسد الإنسان، أو هل يتلاءم جسم البقرة مع رأس إنسان؟

بعد الاحتلال أصبت بهلوسة رهيبة..

كثيرة هي الأيام واللحظات التي راودتني في أن أقتلع رأسي من جذوره وأكون امرأةً بلا رأس.. أو أتخلى عن رأسي الآدمي، وأحمل رأس جمل فوق جسدي.

لا أعرف كيف في ليلة وضحاها صار رأسي رأسًا آدميًّا ملعونًا في الدنيا معذبًا في الآخرة؟

عندما جاهرت بفكرة تبديل رأسي وإزالته عن جسدي، حسبني لفيف من الأقارب والأصدقاء امرأة من سلالة (نصف المجنونة)، أكدت لهم أني اكتسبت صفة الشذوذ الرأسي من إلهة الشذوذ العاطفي والإنساني في مملكة الزوال الإنساني من قلوب البشر، وما ثبّت جنوني وصدّق حسن ظنهم وحدسهم هو أني حاولت اقتلاع أنف الزرافة، وجعله أنفًا في وجهي، وحاولت أن أزرع عيني في رأس بقرة فارضة، لست في حديقة حيوان..

كما أني لست في قاعة درس أعرض صفات الحيوانات وسجاياهم، أو أدخل معهم في سباق علمي لقلع وزرع الأعضاء، ولست في مصحة عقلية، ولا في مختبرات صحية تجري فيها عمليات تخثُّر الدم أو غسل الأدمغة.

عندما حاولوا غسل دماغي بالدم والصابون وقليل من مسحوق نترات الصوديوم، جاءوا بالكهنة والقساوسة من مغارب الأرض ومشارقها، وجاءوا بالبترول والعطور والتيزاب وعصير الليمون الحامض والقاصر.. وحاولوا بالصمغ والكلبسات والمسامير ذات الرءوس المدببة أن يثبّتوا رأسي فوق عنقي.. استعانوا بشتى السوائل والمساحيق والإبر واللواصق.. أرادوا تعذيب رأسي وتأديبه كرد فعل منطقي لما عانته سائر الأعضاء الأخرى من ويلاته ومصائبه وأحقاده الدفينة.. بهذه الطريقة وبأخرى أحاول أن أتخلى عن فكرة استبدال رأسي.. ولكن الكيمياء والعلوم الأخرى فشلت مع رأسي ومكوناته المعقدة.. رأسي مركب من مائة ألف رأس.. رأس أحد العباقرة الكرام.. رأس سفاح.. رأس محارب قديم من زمن نبوخذ نصر الثاني.. رأس حكيم من حكماء بلاد ما بين النهرين.. رأس فتى غبي.. رأس مزوِّر.. رأس سارق.. ورأس إمبراطور.. ومعلم مبجّل..

أحتاج إلى عباس بن فرناس أنبل علماء الطيران والتحليق حتى يبتكر لي جناحًا من الإسفنج أو الورق.. أطير به فوق الغابات والثكنات وأسطح المنازل.. ولكن عباس هذا لم يحن أوان خلقه في اللوح، بينما تجلس مدام كوري بفوطتها السوداء وبزّتها المنمنمة ومسبحتها تصلي؛ حتى يستعيد الكبريت لونه، والفوسفات شكله في دماغي؛ حتى يظهر ابن الفرناس ويرد اسمه في اللوح المحفوظ.

أجمع الخبراء أن رأسي فقد كيميائيته وأصبح سائلًا.. ماء، جبس قاصر، عصير ليمون، عطر فيجي، ندى، شامبو مروج لا يصلح إلا للرءوس ذات الشعر الطبيعي..

أحتاج إلى صحن دهن حر حار أزيل الجفاف من رأسي.. وبإمكانهم أن يسقوني شرابًا منعشًا، أو يرغموني على التمدد بدرجة أو بأخرى.. بارد، حار، مناسب.. وهناك أمل كبير بهذه الطريقة أن يُستبدل ماء وجهي.. فتصبح بشرتي حنطية وليست شقراء.. بشرة تناسب أمزجة من يتغزل بي.. بشرة سوداء كقماش لافتات الحداد المعلقة على أعمدة الشوارع أو الجدران في شوارع بغداد المحتلة.. أو لون إطارات السيارات (حديثة الموديل) التي كست الشوارع بعد الغزو.

كانت وسيلتي الوحيدة إزاء معادلة إغراء المقابل بالرأس.. هو أن أفكر بوسيلة لأتخلص من رأس مسجَّل باسمي في كل سجلات العقاري والأحوال المدنية!

فكرة تبديل رأسي برأس اشتريته من الأسواق (الاورزدي بك).. رأس مطاطي يشبه رأس دمية.. كانت أمي وجدتي تجيدان صناعة رءوس الدمى من الأقمشة.. تحشوان داخلها قطع الإسفنج وبقايا القطن وريش الدجاج وصوف الماعز.. ثم تغرزان دبوسًا وصوفًا أسود بمثابة عين وجفن للرأس، كانت أمي تجيد صنع الرءوس الدائرية أو البيضاوية، وتتفنن في جعله رأسًا مائلًا نحو الأطراف، وتصنع رأسًا لا يضحك، لا يفكر، إلا أن اللعبة تصدف أن تضحك وتبتسم للأطفال، وتضحك الدمية.. وعندما تحاول جعلها تبكي.. تأتي أمي بكاس ماء.. فينسكب من العوارض والمسامات، يتحرك جفنا الدمية، فتتصورها أمي تبكي، إنها تبكي مثلنا.. ولكن هل نحن نبكي حقًا؟

لم أتصور نفسي أنني بكيت..حتى عندما انهار رأسي وسقط مع سقوط البنيان والعمارات والصروح العالية في بغداد بقصف الطائرات وأفواه الدبابات والمدافع الثقيلة..لم أبك والماريتز يمشون ببساطيلهم على المخطوطات والتحف ودواوين البحتري وأبي التمام وأبي النواس والرصافي،ورءوس الأطفال الرضَّع ورأس أبي جعفر المنصور والحلاج، لم أبك عندما بقيت رءوس العباقرة والأولياء تحت بساطيل مجندة زنجية قادمة من بلاد ما

خلف الشمس والنور والعلم، لم أبك وجسد بغداد تنهشه ذئاب المغول مجددًا..

لم أبك.. لكن هاجسًا غريبًا بدأ يسطو على دماغي ويلح عليّ بضرورة استبدال رأسي والتخلص منه؛ معللًا بأن مفعوله قد انتهى.. و لم يعد رأسًا عصريًّا يناسب الموضة.

فكرت باقتناء رأس آخر فعال يتماشى مع متطلبات الوقت.. يفكر، يهمهم، يخترع، يرسم، ينكت، يلاحظ، يخطط ببراعة، يهذي...

أن يجيد رأس كل هذه الأفعال فذلك لأنه رأس مثالي، نادر، فريد..

إنها لمصادفة غريبة أن أكتشف أن كل حركة ناتجة من أجسامنا هي من اليدين اللتين تتحركان بإرادة الرأس..

من الصعب أن أتخلص من اليدين.. ولكن رأسي كرة متحركة، أقطعه من الرقبة وأرمي به في قاع بحر أو من أعلى تل، ومتى ما أرغب باسترداده أفعل ذلك.. ما أجمل أن تصنع رأسًا بمحض إرادتك.. رأسًا توثقه بمسمار، برغي، تلبسه كالـــ(بيريه) وتخلعه دون انزعاج، ومتى ما شعرت بالرغبة في الاستغناء عنه،تستغني عنه بسهولة دون الشعور بالندم والإحباط.

منذ نبأ انخفاض الأسعار وأنا أتردد إلى الأسواق.. السوق العربي، سوق الرشيد، سوق الثلاثاء، الكرادة، الباب الشرقي، سوق الصفاريات، المتنبي، أسواق بغداد الأخرى، أحاول أن أجد رأسًا بديلًا.. غير مبالية بشكله أو نوعه.

المهم أن يكون رأسًا.. رأس بقرة، رأس دجاجة، رأس جابر بن حيان، رأس ابن سينا، رأس الأسلاف العظام، رأس أسد بابل.

والأهم أن أتخلص من رأسي، ولا يهم بعد ذلك إن رميته في حفرة أو ترعة أو برميل نفط أو خزان بترين..

أما لماذا أفكر في ذلك.. فتلك حالة تمتد إلى زمن طويل، له علاقة برحم أمي التي كانت تفصح عن خلجات نفسها وتقول إن رحمي يا ما عانى من رأسك الوقِح، وسال دم كثير من رحمي لأستقبل – أنا (فلذة كبدها) – نور الحياة وأودع ظلام الرحم.

منذ ذلك التاريخ اللعين بدأت سلسلة عذابات رأسي، وزاد شقائي كثيرًا يوم تعرَّفت على رأس يطابقه في اللون والشكل ويناقضه في الحجم، وعرف رأسي أن هناك في العالم الواسع الرحب شيئًا ثلجيًّا.. لا باردًا، ولا حارًّا، نسميه الحب والوجد.

أعوام طويلة والبشرية تدرس تاريخ الحب، حاولت أن أجد له قانونًا في رأسي، أو أساسًا يعتمد عليه؛ إلا أني فشلت.. واستعنت بكيمياء عباس.. الذي كان عالمًا يمتلك رأسًا واضحًا يفكر في الطيران فقط.. ولم يكن يفكر في أمر تبديل الرءوس من فوق الأجساد.. كان له استعداد لأن يخترع جناحًا ليحلق به ويملأ سماء بغداد طيورًا بشرية، ولكنه ليس مضطرًّا أن يضيع في أوهام امرأة مثلي، تقضي جل وقتها في ظاهرة علمية غير مسبوقة.

وكان عباس مؤمنًا بالمقولة المروية لنصف العقل؛ لذا انسحب من الدنيا باكرًا، انتحر قبل أن يلفظ رأسه جسم بقرة أو جسد ثعلب.. وأكثر الأحيان أتخيل أن رأسي ساعة، دقاته تعمل بانتظام، تدور الدقائق دون توقف، تنتهي ساعة وتبدأ أخرى.. زمن يتلاشى من الوجود، وزمن يولد، إلى أن احتلَّت صحة رأسي واستُهلكت قوته، صار سائلًا، يذوب، يتمدد، يتخثَّر ويتجمد...

أعلّقه بخيط في أعلى المروحة، أدكه بمسمار على الجدار، أضعه في صحن؛ إلا إني أجده قد وثب وعاد يلتصق برقبتي، يلتحم بها، يمكُر، ويَخبُث، ويعمل مقالب، ثم يأخذ بإخراج لسانه ممازحًا إياي، يدرك أن اللعبة لا تنتهي، وأن كل محاولاتي لاستبداله هي هراء.. البقرة ترفض أن تبيع رأسها، والثعلب الماكر يريد ثمنًا بخسًا لجسده، لا.. محال أن يبقى رأسي يتدلى من فوق جسدي ويشقى أكثر كيمياء.

١+١

محمد عبد العليم إبراهيم

قررت اليوم أن ألعب لعبة جديدة.. سأنظر من النافذة وأعد المارة من أمام بيتي واحدًا واحدًا خلال سبع ساعات متفرقة.. اللعبة ليست مملة كما تبدو.. لقد تعلمتها من جدتي يوم كنت في بيتها في تلك المدينة الجديدة جوار الصحراء.. أرادت أن تشغلني لتنام قليلًا فأرشدتني لهذه اللعبة.. تظن أنني قد اقتنعت ولعبتها حبًا في اللعبة.. أتظنني صغيرًا لا أفهم؟!.. لقد أتممت عامي السادس منذ شهرين.. لكني هاودتها لأنني أعلم أنها متعبة فعلًا وتريد الراحة؛ فشغلت نفسي بهذه اللعبة.. نظرت من النافذة وكلما مر أحدهم أكتب في الورقة +١ وهكذا.. في النهاية، وبعد عدة مرات، وجدت أنه خلال سبع ساعات مر حوالي ٨٣ مارًا.

اليوم سأجرب هذه اللعبة هنا.. في شارعي الكبير.. أعلم أنها مهمة صعبة؛ لكنك تعلم طباع الصغار أمثالي.. أقصد الكبار أمثالي.. عندما يصرون على شيء لا بد وأن ينالوه.. بالتأكيد كنت في مثل عمري وتعلم ما أتكلم عنه.

قرأت الفاتحة وبدأت مهمتي.. ١+١+١+١... يمر عليَّ بشر مختلفة أصنافهم.. السعيد والحزين.. القوي والضعيف.. السمين

والهزيل.. المبتسم والمهموم.. أحيانًا يمر مجموعة كبيرة في وقت واحد.. وأحيانًا لا يمر أحد البتة.. إن الأمر أصعب مما توقعت.. بعد مدة من الزمن لم أجد أحدًا يمر فاتخذتها فرصة لحساب ما كتبته.. ١+١ يساوي ٢، و٢+١ يساوي ٣، و٣+١ يساوي ٤.. عندما وصلت لآخر رقم وجدته ٢١ أو ٢٢.. أقصد أنني أشك في أحدهما.. يا للهول.. لن أعيد تلك العملية الحسابية المعقدة.. أخيرًا مر أحدهم...

بكل براءة سألته: عمو.. هو أنت رقم ٢٢؟

أجابني بكل حزم: ليه؟.. شايفني أبو تريكة؟.. ثم تركني وانصرف!

حسنًا سأعتبره رقم ٢١ طالما غضب من ٢٢.. تكررت نفس المشكلة معي عندما وصلت لرقم ٦٣ أو ٦٤.. لعل القادم يعرف.. هذه المرة سأخيِّره بين الرقمين حتى لا يغضب..

أخيرًا أتى.. شخص مبتسم.. إنه ما أريد...

بنفس البراءة سألته: عمو.. هو أنت رقم ٦٣ ولا ٦٤؟

نظر لي وهو ما زال يبتسم: أنت عبيط يا ابني؟

أخذتني الحماسة فقلت: أنت اللي عبيط يا عمو..

وأغلقت النافذة بسرعة البرق؛ حتى لا يصل إليَّ سبابه المستمر، وتوعده بضربي.. لا أعلم لماذا يكره أن أناديه بلقب يناديني به؟.. يا للكبار!

لقد سئمت هذه اللعبة.. سبع ساعات كاملة وأنا أعد.. الآن عاد أبي من العمل.. أصبحت أعلم الآن صعوبة عمل أبي.. لقد أصبحت مرهقًا متعبًا من مجرد الوقوف والعد.. جمعت أول مائة رقم فقط.. لم ندرس بعد ماذا بعد المائة.. جعلت أبي يجمع الباقي.. لا أعلم مدى ضخامة الرقم لكن والدي بعد نصف ساعة من الحساب كتب في النهاية: ١٢٥٢.

- هوَّ الرقم ده أكبر ولَّا ٨٣ أكبر يا بابا؟

- طبعًا الرقم ده أكبر بكتير.

- طب ليه الناس هنا كتير وعند تيتة حبة صغيرين؟

- ارحمني يا ابني أنا جاي تعبان من الشغل.. مش كفاية قعدت أحسبلك.

مستخدمًا سلاح البراءة:

- عشان خاطري يا بابا..

- الناس هنا كتير عشان الشغل هنا كتير، والبيوت والمدارس، وكل حاجة هنا كتير...

- طب ما يعملوا هناك شغل وبيوت كتير، والناس تروح هناك!

- وأنت عاوز الناس تروح هناك ليه يا سي ميدو؟

- أصل الدنيا هنا زحمة قوي وهناك فاضية قوي.

بدأ ينفد صبر أبي على أسئلتي: بس عشان تنقل الناس دي كلها هيبقى صعب.. دي حاجات لسه هاتخدها في المدرسة.

- صعب ليه؟.. ما كل واحد يروح في حتة فاضية ويبني البيت بتاعه.. لازم يعني الناس كلها تعيش في مكان واحد؟

الآن نفد صبر أبي فرفع صوته قائلًا: أنت مش بتفهم ليه؟.. أنت عبيط يا ابني؟

رددت عليه مهددًا بأصبعي: بابا.. متخلنيش أقولك زي ما قلت لعمو.. أنا بحبك ومش عاوز أخسرك..

نظر إليّ مستغربًا: عمو مين يا ولد؟

هنا تذكرت شيئًا.. إن أبي ينتمي للكبار.. بالتأكيد سيضربني إذا علم أنني أهنت كبيرًا مثله.. تهرَّبت من الرد قائلًا: إلحق ماما بتندهلك من المطبخ.. ثم جريت مسرعًا إلى غرفتي غير مباليًا بجملته: خد هنا يا ولد!

فعلًا.. للكبار تصرفات غريبة..كيف يتركون تلك المساحات الواسعة ويسكنون جميعًا في مكان واحد..ثم يشكون الزحام؟!!.. يا للكبار!

ديسمبر ٢٠٠٩

دكتاتورية الشعر الأسود

د. محمد محفوظ

كانت الشمس في منتصف السماء، تتعامد على الشرفة الواسعة المهيبة التابعة لجناحه الرئيسي.. وكان قد انتهى لتوه من اجتماعه اليومي المعتاد، وصعد مباشرة إلى الحمام، ليتهيأ قبل بدء أجندة اللقاءات العامة.

اقترب بوجهه الممتلئ النابض بالكبرياء من المرآة،ومسح بيده على رأسه، واتجهت يده الأخرى إلى الملقاط، وبكل ثقة انتزع الشعرة البيضاء التي كانت قد اندست وسط صفحة شعره الحالك السواد.

انتحى الملقاط بجوانبه المعدنية اللامعة – في أقصى يسار التسريحة – تحت الضوء الكابي النافذ من الستائر الكثيفة.. واحتلت مكانه الزجاجة الصغيرة القاتمة، لكي تصبح في مجال حركة يده التي اعتادت أن تتجه إليها، لتلتقط الفرشاة المغموسة في صبغتها القاتمة المحروقة السواد، لتمررها المرة تلو الأخرى على الخصلات الشائبة التي بدأت تمطر رأسه بالبياض.

ولكن الغصة كانت تضخ مرارة داخل حلقه،وهو يطالع ملامح وجهه التي تهدلت وتجعدت وكساها الوهن، وأصبحت تخاصم بشحوبها هذا الشعر الفاحم السواد.

وكالبرق انعكست هيئة ابنه - وهو يمر من خلفه - على سطح المرآة؛ بقامته المنتصبة، ووجهه الناطق بالشباب تعلوه خصلات شاهقة الاسوداد؛ فلمعت عيناه، ووسوست له نفسه بأن توريث الأبناء هو امتداد ودوام واستمرار لشباب وحياة ومسيرة الآباء.

***

كانت الشمس في منتصف السماء، تتعامد على شرفة (القصر) الواسعة المهيبة التابعة لجناحه الرئيسي.. وكان قد انتهى لتوه من اجتماعه اليومي المعتاد، وصعد مباشرة إلى الحمام، ليتهيأ قبل بدء أجندة اللقاءات العامة.

اقترب بوجهه الممتلئ النابض بالكبرياء من المرآة، ومسح بيده على رأسه، واتجهت يده الأخرى إلى الملقاط، وبكل ثقة انتزع الشعرة البيضاء؛ التي كانت قد اندست وسط صفحة شعره الحالك السواد.

وحانت منه التفاتة نحو صورة أبيه المعلقة على الحائط البعيد في أحد الأركان...

*****

شـــواء

محمود عبد الستار توفيق

مضى القطار، واستمر بعد أن قفزنا من بابه، كان كفّانا ما زالا متشبثتين ببعضيهما، وجسدينا يرتفعان، يعلوان عن الأرض.. كانت ملامحنا ثابتة، لكن أجسادنا تتجرد من انجذابها للأرض.. تعلو وتعلو، تفقد صورها، وتبقى كتلًا نورانية، روحان صرنا، والكفان ما زالا ملتصقتين، أنا والمقدّس عباس يوسف...

"ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلًا".

كان صوت الشيخ القارئ يرتل أعلانا.. كتلته النورانية أكثر بهاءً ووهجًا منا.

****

- إما أن تتأملها جيدًا، أو لا تنظر لها بالمرة؛ كن واضحًا صريحًا مع نفسك.

قالها رجل يرتدي نظارة، يبدو في الخمسين من عمره، مظهره الوقور زاد من دهشتي.. لم أملك سوى أن أنتظر ما سيتبع كلماته تلك، وتوقفت مؤقتًا عن النظر تجاه الفتاة الرائعة

الجالسة في مقعد القطار الأول، وينتابني شعور بافتضاح أمر نظراتي لها.. قلت: من حضرتك؟!!

– المهندس عزت فهمي، وأنت؟

– أحمد، أود أن أوضح لك أن نظراتي تلك لم تكن...

– أنا لا أجرِّم نظراتك تلك، فقط أطالبك بالصراحة مع نفسك.

علا صوت نفير القطار، رفعنا أصواتنا متحاورين في ود، هجم الركاب على بوابات القطار، وتراجعنا حتى التصقنا بمقعد الفتاة.. ازداد تدافع الركاب حاملين الأقفاص والأشولة والكراتين الورقية، كان المهندس عزت في حالة من القلق أقرب ما تكون إلى الفزع من تدافع الركاب؛ حتى لم يعد هناك موضع لقدم في عربات الدرجة الثالثة العادية السبعة من عربات القطار الخمسة عشر.

.. بين التحام الناس يشق بائع يحمل قفة طريقه وينادي: (عيش.. طعمية سُخْنة وقوطة وجبنة)...

استوقفه أحد الراقدين على حاملة الحقائب – المثبتة بطول عربات القطار أعلى المقاعد – طالبًا (عيش وطعمية).. أزاح البائع الجوال المحيطين به من الركاب ليعد طلب زبونه المعلّق.. انفعل المهندس عزت صارخًا فيهما،

موضحًا أنه ليس من الحضاري أن يتعامل مع الناس بمبدأ القطيع ويزيحهم، ثم إنه ليس من اللائق أن يرقد هذا الإنسان في موضع حمل الحقائب.. اقترب من أذني، وقال: قرود!.. دون اكتراث ناول البائع الجوال رغيف الخبز تعلوه أقراص الطعمية وشرائح الطماطم.. نقده الجائع المعلق الثمن، همَّ البائع بحمل قُفّته، أرسل نظرة ناقمة تجاه المهندس عزت، وتحرك وسط حشود الركاب.. كان القطار قد غادر محطة مصر.

******

كانت الكتل النورانية تتدافع؛ كلما ابتعد القطار على امتداد شريطه الحديدي، وأجسادنا تتخذ شكلًا مخروطيًّا في نصفها الأسفل، متسمة باللون الأبيض.. ما زال كفانا متشبثتين إحداهما بالأخرى بالضبط لحظة قفزنا معًا من بوابة القطار.

******

عظام كفه التي غرست في بطن ذراعي أيقظتني من حالة جمود كانت قد اعترتني من برودة الهواء المتسرب من شقوق ونوافذ القطار المحطمة، كسفينة انتُشلت من غرق دام سنوات طوال، متكاملًا مع اللمبات الصفراء الشاحبة وسط سقف القطار، ورائحة تشبه الكيروسين تفوح من جدران عربات القطار.

أجلسني جواره على المقعد الخشبي للقطار قبل أن تنفلت كفه من حول ذراعي، ابتسامته الطيبة شكّلت تقبُّل استمد حرارته من لهيب الشمس الراقد خلف ملامحه السمراء العجوز، قال: خالَيْ سمية ذهبا للوقوف على الباب قليلًا، سيدخنان على ما أظن، قالا لي إنك من قفط في محافظة قنا.. يشبِّهان عليك، أصحيح؟

– صحيح، جدي المأذون الشرعي لمدينة قفط، لكن والدي مقيم في مساكن مصنع الألمنيوم بنجع حمادي.

[illegible] الاضطراب [illegible] اسمها (سمية) وأنها تمشي إلى [illegible] المتبادلة لم تتوقف.. قال العجوز كاشفًا عن ساق له بها تورُّم وبثور: أهملت في الورم لغاية ما بقى بهذا الشكل، وجرى ولديَّ بي على أطباء مصر، نزلت عند بنتي، متزوجة في الهرم شارع زغلول، أم سمية، وأصرَّت سمية تطلع معي على قفط تشوف ناسها على عيد الأضحى، وها هي منورة قطار الصعيد...

جلوس خال سمية في مواجهتي قطع حديث الجد، وأقسم خالها الثاني ألا أقوم من مكاني، قال حاكيًا متخللًا كلامه ضحك: مجموعة شباب بعدنا بثلاث عربات تقريبًا، اختلفوا على رواتب يوميات أخذوها من المقاول الذي يعملون معه في مصر؛ علت الأصوات، ومرة واحدة انقسموا، واتهموا اللذين

في ناحية أهل الناحية الأخرى - من زملائهم ! - بأن قبيلتهم من أسافل القبائل التي تنتمي للجزيرة العربية وأكثرها نذالة.. انتفضت العروق؛ واحمرت الوجوه و...

- وشهروا سيوفهم..!!

ضحكنا على كلمة سمية الأولى بعد صمت طويل مداعبةً خيالنا.. استكمل الخال حديثه:

- ظهرت الأحزمة الجلدية والعصي، وعينك ما تشوف إلا النور.. رجل عجوز ينادونه بالمقدّس عباس كان قاعدًا ورآهم، وقف وبقي يصرخ فيهم، ثم نادى مجموعة من العساكر المجندين - نازلين أجازة العيد - كي يتدخلوا.

انفتح من خلفنا الباب الفاصل بين العربات المكيفة والعادية، دخل أمين شرطة وخلفه أربعة عساكر يحملون عصيًّا، وبدا أنهم يتجهون إلى موقع المعركة.

****

الاندهاش واتساع حدقات العيون كان مرسومًا على ملامح من تعرفت عليهم ومن لم أعرفهم من المتصاعدين كلما مر الوقت.. الكتل الأكثر نورانية وبهاءً - والأضخم بكثير حجمًا - تحرك أجنحتها يمينًا ويسارًا من حولنا؛إما صعودًا إلى السماء، أو هبوطًا في اتجاه الأرض، قلت: اليوم وقفة عيد الأضحى؛ أي رحمة!!!

فغر فاه المقدس عباس يوسف، قال: الملائكة!!!

من بعد علا صوت قائلًا: يبدو أننا نرتفع، يخف وزننا، ونصبح أكثر شفافية!!

رد آخر كانت تتخلل كلماته ضحكات: إننا أرواح.. لقد متنا بالفعل!!

لم يفق أحد منا من الدهشة، استمرت حالة أشبه بالتمركز، كل الأرواح التي صعدت والمتصاعدة تتجمع في حيز واحد دائري، ولم يتوقف صوت الشيخ قارئ القرآن عن الترتيل، يشاركه صوت خافت يشبه حفيف الأجنحة، قادم من تجمعات الملائكة الصاعدة والهابطة.

******

جسد النوم ارتخى مخيمًا بظله على ركاب القطار - الجالس منهم والواقف - محققًا وجوده من الانقطاع المتكرر لتيار كهرباء اللمبات الصفراء الشاحبة المعلقة في سقف عربات القطار، لا يكدر صفوه إلا نداءات الباعة من شاي ساخن وكتيبات أهوال القيامة وأمثالها من المرهِّبات، وصوت حركة القطار وتأرجحاته.

كوني آدمي حرَّض ناظري على الانغلاق ممتثلًا لمشهد النوم الجميل؛ إلا أنهما ألقيا نظرة على سمية التي استسلمت لنوم

عميق، متكئة على نافذة القطار، تسرب ضوء من أحد أعمدة الإنارة المتراصة على حافتي الطرق في الخارج، فتحققت من جمال تفاصيل وجهها؛ إلا أن ما خيل إليّ من بريق جانبي نبع من عيني الجد، ردد تساؤلات ارتجت في داخل جمجمتي.. هل رآني الآن؟.. هل افتضح أمر نظراتي منذ البداية؟.. لماذا أنا مدفوع إلى النظر إليها من الأساس؟!

.. لم يمهلني الجد زمنًا للتساؤل؛ فقد نطق: من صغري أعمل في أرض ناسك، كرماء وأولاد أصل صحيح.

صمت وأغلق عينيه؛ قررت أن أغلق عيني متصنِّعًا النوم، محافظًا على ما تبقى من مجد "ناسي".

"إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها * وقال الإنسان ما لها * يومئذ تحدث أخبارها * بأن ربك أوحى لها* ....".

فتحت عيني على الصوت، كان لشيخ كفيف يرتدي جبة وعمامة بيضاء، يتوسطها طربوش أحمر، يمد كفيه أمامه.. تسقط منه عملات كانت تعطى له إحسانًا.. يتابعه الواقعون في حيز صوته، وسرعان ما تعود العيون للارتخاء - كما أفاقت - عند ابتعاده ذهابًا أو إيابًا.

.. وقف المهندس عزت إلى جواري قادمًا من العربات الأخيرة في القطار، وإلى جانبه شاب متوسط القامة، تتدلى من

حول رقبته كاميرا فوتوغرافية، عرفني بأنه (مجدي) محرر صحفي.. ورجل عجوز قال إنه المقدَّس عباس يوسف، صديق قديم.. عرَّفه في حركة أوبرالية ساخرة، حجَّمها التلاحم البشري للركاب.. إنه أحد جنرالات حرب فلسطين، عايش الحلم، وخاض التجربة، وبقي في فلسطين قدرًا من الزمن في ضياع المقاومة؛ من هنا استمد قداسته تلك.

.. تبادلنا الترحيب.. أشار المهندس عزت إلى الشيخ القارئ الجوال، قال ضاحكًا: رجال الدين حكموا الغرب لقرون، بينما يمد - هنا - كفيه متسولًا شيئًا ما غير المادة؟!

استدار بنظرته على ثلاثتنا قائلًا: لنشرب شايًا في البوفيه المكيف.

****

تعتقدون أن الله سيسمعنا؟!

حاصرته العيون المذهولة، تحوَّل بعضها للنضب؛ لأن الموقف لم يعد يحتمل تساؤلات أكثر وأصعب.. في اللحظة انفعل أمين الشرطة صارخًا في عساكره الأربعة بترك مجموعتي القبليين؛ لأن ميعاد النوبتجية قد انتهى.. آخر قال: إن الوقت ليس وقت موت؛ فوراءه كوم لحم، وهو عائلهم الوحيد.. ظهر مجدي -

الصحفي - استمر يدوّن ما يقوله الناس، ويلتقط صورًا فوتوغرافية.. نظرت قلقًا إلى المقدّس عباس قائلًا: الظاهر أن المهندس عزت لم يمت!!

رد رجلًا ذا لحية كثيفة بدا شيخًا ورعًا: لم يمت أحد من الأساس، انظر حولك؛ إن الناس يتبادلون الكلام والقفشات والتدخين والأكل، كأنهم مازالوا داخل القطار!!

ابتسم المقدس عباس مؤكدًا كلام الشيخ الورع، قال: الموت دائمًا يسبقه يقين؛ بينما هناك من يبحث عن ميعاد نوبتجية أو كوم لحم له، كما ترى مجدي ما زال يكتب ويبحث عن صورة فوتوغرافية أفضل.. الناس لم تعد تعرف الفرق بين الحياة والموت!

.. توقف الشيخ القارئ عن ترتيله.. هلل الناس منادين:

يا الله .. يا الله .. يا الله...

كانت مجموعة الملائكة أحاطتنا.. دارت حول حيزنا الدائري.. أخذت تدور من حولنا في تلاحق لطيف رائع زلزل قلوب الناس التي لم تتوقف عن مناداة الله.

******

رشف المهندس عزت من كوب الشاي مستدفئًا ببخاره، قبل أن ينظر للصحفي مجدي قائلًا: بدلًا من فكرة موضوع مناقشة سلبيات عربات قطارات الدرجة الثالثة العادية بشكل

واقعي.. يمكنك أن تصنع تحقيقًا يحقق دويًا في مختلف الأوساط والطبقات الاجتماعية، ويثبتك - من الناحية الانتهازية - في نقابة الصحفيين.

ارتسمت ابتسامة على وجه مجدي وقال: وكيف يكون ذلك؟!!

بالغ المهندس عزت - بعض الشيء - في جدية ملامحه، وأخذ نفسًا عميقًا وهو يقول: في اللحظة التي اصطدم فلاش كاميرتك بعيني، كنت في عملية تفحص لتلك الشريحة من الركاب، رأيت الكتل البشرية في عربات الدرجة العادية السابعة، هالات من العمائم المرتفعة فوق رءوس خاوية الفكر إلا من بعض الموروثات البالية، وطُرَح وبُرُد سوداء نسوية، وشباب المجندين عائدين في إجازات العيد.. المسلم والمسيحي، الأبيض والأسمر.. عالم متشكل من تربة نيل مصر، فكرتي - بدون إطالة - أن تكتب موضوع تحقيق صحفي عن تظاهرة قاموا بها داخل القطار، مطالبين الحكومة بحلول لمشاكلهم؛ من بطالة، وارتفاع الأسعار المستمر، وكرامة المواطن وحريته الكاملة، وغيرها وغيرها...

قال المقدس عباس متضامنًا: سنقسم أنفسنا لخلق رأي عام من شريحة ركاب قطار الثالثة العادية لصالح فكرتنا.

قلت: ويمكن أخذ صور فوتوغرافية للتظاهرة بالاتفاق معهم بعد ذلك.

قال مجدي الصحفي وهو يحرك الكاميرا: ورقي وقلمي، وها هو فيلم جديد في الكاميرا.

قال المهندس عزت: لنتحرك الآن راجين التوفيق.

******

توقف تدفق الكتل النورانية دلّ على توقف حركة القطار على الأرض، لم تصعد سمية أو جدها أو أحد خاليها.. لم تتوقف الجموع عن مناداة الله، بيد أن رؤيتي للمشهد أصبحت غير واضحة؛ تغيب الملامح.. تعود أقل وضوحًا.. للمرة الأولى يظهر مشهد - لم يكمل لحظة - لمجرى مائي ضيق خلفه زراعات، وصفت تلك اللحظة للمقدس عباس، ويراودني اعتقاد بأنها الجنة.. حرك شفتيه بكلمات لم أستطع سماعها، لكنه كان يشير إلى هؤلاء اللذين يتداعون لأسفل مثل الشهب.

******

التجاوب واليقظة والتساؤل هو ما كان مردود ركاب القطار في أحاديثهم وتعاملاتهم بعد طرحنا للفكرة، لكن مع أول ضوء فلاش لكاميرا مجدي ثبتت في عقولهم جدية الأمر، لم يعد انقطاع الضوء أو وجوده مؤثرًا، اليقظة ثبتت جفون ركاب القطار، أصبحت حركة الباعة حيوية، وهتافهم صار

أعلى، كذا علا صوت الشيخ قارئ القرآن.. بعض الشباب رفعوا أكفهم مضمومة وبدءوا يهتفون - فيما يشبه حماسهم للعب الدومينو - يا رب.. يا رب.. يا رب...

لكن آخرين وآخرين في العربات الأخرى انضموا لهتافهم، صاروا كالعصب على امتداد عربات القطار، انقلبت ملامح المهندس عزت إلى جدية صارمة، وضم قبضته، رفعها لأعلى وتحرك في القطار متلاحمًا مع كتلة الركاب.

.. الهتاف أصبح طرقًا على جدران القطار.. شباب وشيوخ ونساء.. أمسك بكفي المقدس عباس مشيرًا إلى مكاننا الأول قائلًا: يبدو أن الأمور خرجت من أيدينا!

عند وصولنا إلى مكاننا الأول كانت هناك مجموعة من رجال الشرطة واقفون دون حركة أمام التداعيات الهستيرية التي بدا أنها لامنتهية من الناس...

.. وأتذكر أن...

أناسًا جاءوا مهرولين من ذيل القطار، تعلوهم علامات الفزع، قالوا إن النار مشتعلة في آخر عربتين، وأحرقت الركاب وأمتعتهم، النار تبتلع أسقف وجدران ومقاعد العربات.. إنها قادمة وبسرعة...

هرول الجميع باتجاه الباب الفاصل بين العربات العادية والمكيفة هربًا من الحريق القادم، اندفاعنا سد فوهة الباب.. أصبح الخيار إما أن نبقى فنحترق، أو نقفز رغم سرعة القطار!!

الرياح المخترقة على جانبي القطار حولته لصناديق للشواء.. يصرخون فيموتون احتراقًا.. يصرخون فيموتون تحت أقدام الفزع.. إنه الموت حقًا.. رائحة الدخان ملأت أنوفنا.. تشبث المقدس عباس يوسف بكفي طالبًا النجاة، مضيت بكل طاقتي تجاه بوابة القطار.. لكن سمية وجدُّها؟!.. رفعت رأسي محاولًا رؤيتها.. كان الجد يضمها إلى صدره دون حراك، وصلت - مدفوعًا - إلى حافة القطار.. جذبت المقدس عباس، وقفزنا لأعلى.. قليلًا.

******

باتت رؤيتي لمشهد المجرى المائي الضيق والزراعات المرصوصة عندها جثث متفحمة محترقة متكررة كلما فتحت عيني، زاد اندهاش المقدس عباس والشيخ الورع الذي قال: جثث آدمية محترقة.. هذه أمور تحدث على الأرض.. نحن هنا في السماء!

رمقني المقدس عباس بنظرة مودَّة قبل أن يسحب كفه من قبضتي ويضع كفيه أسفل ذقنه في وضع صلاة.. ارتفعوا.. صعدوا.. مثل الشهاب كنت أتداعى باتجاه الأرض.. شعرت بأني أُحجَّم.. أُقنَّن.. أعود إنسانًا.. يحرقني لهيب الشمس.. فأفتح عيني.. على مقربة مني مجرى مائي ضحل ضيق.. وراءه زراعات.. ورجال يرصون جثثًا متفحمة محترقة.. وصوت سارينة سيارة إسعاف.. حملوني إليها...

خلية الدم السوداء
Black blood cell
B.B.C

محمود مصطفى أحمد

الاكتشاف..

الدكتور محمد سالم من مصر.. فليتفضل...

قالها مسئول تنظيم المؤتمر العالمي السادس والسبعين لأمراض الدم المقام في لندن، لتتردد كلماته عبر السماعات المنتشرة في القاعة الواسعة الفارهة...

نهض الطبيب المصري من مقعده في هدوء، تعلو قسمات وجهه أمارات الوقار والذكاء؛ ليتجه بخطوات واثقة إلى طاولة المحاضر..

وقف خلف الميكروفون، وتأكد من تعديل وضعه على عجل، ثم تنحنح وقال: بسم الله.. السلام عليكم ورحمة الله.

نظرة خاطفة على وجوه الجالسين أرته علامات الاشمئزاز والاستهزاء على وجه البعض، والتي اعتاد على مثلها في مثل هذه المحافل العالمية..

ابتسم في ثقة.. وقال: مؤتمرات كثيرة عقدناها مرارًا وتكرارًا حول أمراض الدم.. والمعروف أن هذه التسمية العامة تشمل في

عباءتها الكثير والكثير من الأمراض التي يعاني منها الإنسان في مختلف أعمار حياته..وأن هناك قسمًا منها يعد من أعنف أنواع الأمراض التي تعاني منها البشرية اليوم.. وتكون نسب الوفيات بسببها عالية للغاية.. اليوم أحب أن يكون اجتماعنا مختلفًا.. بالرغم من أن بحوثًا جليلة وأفكارًا خلاقة عرضت ههنا؛ إلا أنني أستأذنكم في عرض ما توصلت إليه في مجال علاج هذا النوع من الأمراض..واسمحوا لي بأن أؤكد لكم أنه لو اكتملت فكرتي وتجاربي تمامًا؛ فإنه لن يستعصي على البشرية أي غزو مرضي أيًا كانت قوته.. وستنمحي أساطير أمراض عذبت البشرية دهورًا؛ كالإيدز والسرطان، وستصبح ماضٍ للفكاهة...

سكت الدكتور محمد للحظات وابتسم؛ إذ سرت همهمات بين الحاضرين بين ساخر ومترقب..

استطرد قائلًا: دعوني أقدم لكم.. خلية الدم السوداء..

وما إن قالها حتى انفجر البعض في ضحكات مستهزئة، وهز آخرون رءوسهم في شفقة، ولسان حالهم يقول: أخرق آخر.

ولكن ابتسامة الدكتور محمد الواثقة لم تتبدل للحظة.. وظلت تعلو وجهه في ثبات.. حتى إذا هدأ الجمع، وضع الدكتور محمد قرصًا صلبًا في جهاز عرض المعلومات أمامه؛ ليظهر أمام الجميع فيلمًا قصيرًا يعرض مشاهد يعرفها الحضور

عن ظهر قلب.. بدأت بصورة مكبرة متحركة خلايا الدم التي تسري في الأوعية المختلفة.. وبين خلايا الدم الطبيعية خلايا أخرى تبدو عليها علامات السقم والضعف.. وبين هذا وذاك بعض الجسيمات الغريبة بادية الشراسة التي أخذت بعض خلايا الدم المسئولة عن المناعة تتجمع حولها بكثرة وتهاجمها بغزارة.. لحظات قليلة وبدأت تغيرات عدة تطرأ على هذه الجسيمات.. أتبعتها تغيرات أخرى في الخلايا المناعية التي تهاجمها.. بدا واضحًا أمام الجميع أن جهاز المناعة يتقهقر أمام عنف هذه الجسيمات المهاجمة.. صورة ليست غريبة على أي طبيب متخصص في أمراض الدم.

مط المعظم شفتيه في ازدراء.. إذ حدثتهم نفوسهم أن الأمر لن يعدو محاضرة أخرى لا تحوي جديدًا، وإنما مجرد تسميات ملتوية لبعض الأشياء المعروفة.. وفجأة.. ضاقت عيون الجميع في تركيز واستغراب.. إذ ظهرت هذه الخلية الضخمة الغريبة.. خلية بدت واضحة الكبر بالنسبة لما حولها من خلايا وجسيمات.. أما ما استرعى انتباه الجميع أكثر.. فهو لونها شديد السواد.. وكأنها قطعة من الفحم..

كانت تلك الخلية السوداء تسير بسرعة غريبة تفوق سرعة تدفق الدم ذاته.. وكأن لها فكرًا وإرادة حرة..

وانطلقت كالطلقة الموجهة؛ لتقف أمام التجمع الحاشد لخلايا الدم المناعية على الجسيمات المهاجمة.. ثم بدأت تفرز

سائلًا عجيبًا أسود.. بدأ ينتشر بسرعة كبيرة كقطرة حبر سقطت في كوب من الماء.. وما إن لامس ذلك السائل خلايا الدم؛ حتى تخلخل التصاقها بالجسيمات الغازية.. وأسرعت تفر من مكانها وكأنها استشعرت خطرًا لا قبل لها به.. وهنا ظهرت الجسيمات المهاجمة بوضوح.. وكل منها يستخدم وسيلة دفاعية مختلفة.. إذ أخذ بعضها يفرز مواد شاحبة يحاول بها الدفاع عن نفسه وحاول التراجع والفرار.. والبعض الآخر – وكان أصغر حجمًا بكثير حتى بدا كنقاط صغيرة – أخذ يتغير لونه وشكله بشكل واضح.. والبعض الآخر لم يحرك ساكنًا..

كانت هذه بعض الأساليب الدفاعية التي تستخدمها بعض الجسيمات التي تهاجم أجسادنا.. إذ يفرز بعضها مواد سامة تسمى (Exotoxins) تحارب بها جهاز المناعة وتدمره بها.. وتتميز به بعض السلالات القوية من البكتيريا..

والبعض الآخر – كالفيروسات – يعتمد على التغيير الدوري لتركيبته الخارجية لتضليل جهاز المناعة، وتكون هذه من أشرس أنواع الفيروسات وأفتكها..

والبعض الآخر يعتمد على تركيبته القوية وأغلفته المنيعة الخارجية المحيطة به..

بدا واضحًا أمام الأطباء الحاضرين أن هذا الجسد الذي يصوِّر هذا الفيديو بداخله جسد سقيم مصاب بشتى أنواع

الجسيمات المدمرة الفتاكة التي يكفي إحداها لإحداث ضرر بالغ بأي كائن حي..

ولكن هنا.. اختلف الوضع اختلافًا شديدًا.. إذ أخذ ذلك السائل الأسود ينتشر بسرعة.. والخلية السوداء ساكنة في مكانها، وكأنها تدرس الموقف بعناية.. ولكن ما إن لمس ذلك السائل القاتم الغريب الجسيمات المهاجمة وما تفرزه من سموم تحركت الخلية السوداء من جديد.. ولكن كان تحركها هذه المرة شديد الاختلاف...

إذ كان تحركها شبيه بالإعصار المدمر الذي لا يبقي ولا يذر..انقضت في البداية على الجسيمات الغريبة المهاجمة.. ووقفت على مقربة منها.. ثم أفرزت كريات سوداء صغيرة...

وما إن فارقت هذه الكريات الخلية السوداء الأم؛حتى أخذت تتضخم وتكبر بسرعة مذهلة..ثم انقضت هذه الكريات على كل الجسيمات الضارة التي لامسها السائل الأسود.. واحتوتها بداخلها.. سكن الأمر للحظات أمام الشهود بعد أن التهمت تلك الكريات السوداء كل الجسيمات المعادية وكأنما توقف المشهد عند هذا.. وفجأة.. بدأت تلك الكريات في الانفجار...

انفجار محدود للغاية.. دام لحظات معدودة.. ثم تلاشت تلك الكريات تمامًا.. وبدا واضحًا أن انفجارها قد حولها لمواد مسالمة امتصت بسرعة بواسطة الدم...

وانتهى المشهد برمته، وانحصر على تلك الخلية السوداء التي سكنت في هدوء لم يدم طويلًا.. إذ تحركت مرة أخرى.. إذ بلغ السائل الأسود المنتشر بعض خلايا الدم السقيمة التي أمرضها هجوم الجسيمات.. والتي صار لونها أبهت وحركتها أضعف.. وكأنما ذلك السائل الأسود رادار عظيم يرصد لتلك الخلية السوداء كل التغيرات المؤذية التي تحدث في البيئة المحيطة بها ويؤهل تلك الخلية السوداء لهجوم ساحق..

وتكرر مشهد الكريات السوداء الصغيرة من جديد.. ولكن هذه المرة لم يكن ضد جسيمات ضارة معادية.. وإنما مع خلايا الدم المريضة الواهنة.. لحظات قليلة وصار الدم صافيًا.. إلا من الخلايا السليمة والخلية السوداء الرهيبة.. التي وقفت في مكانها في براءة لا تدل أبدًا عما أحدثت من هول في ثوان معدودة...

وللحظات.. ساد صمت رهيب في القاعة بعد انتهاء هذا الفيلم القصير.. وفجأة بدأت همهمات تتعالى.. لم يكن أحد من الحاضرين مصدقًا لما رآه...

صاح أحدهم: هذا الفيديو ليس حقيقيًّا...

انطلقت الصيحات غير المصدقة لهذا الفيديو..

كانوا علماء عظام في أمراض الدم من شتى بلاد العالم.. وكان مثل هذا الفيلم القصير يمثل حلمًا رقراقًا لهم.. أفنى كثير

من سلفهم أعمارهم عسى أن يصلوا لمثله.. وأضحى لا يتعدى حلمًا يداعب مخيلتهم.. في الحقيقة.. كان أجمل من أن تصدقه العقول.. أن تصبح معظم الأمراض التي عذبت البشرية دهورًا تاريخًا ماضٍ وأثرًا زائلًا.. يا له من حلم..

لم يتحرك الدكتور محمد من مكانه.. ولم تفارق الابتسامة الواثقة شفتيه.. للحظات اشتعلت القاعة بالصيحات..

- هل تظننا حمقى؟

- يا لها من خدعة رخيصة..

- أنت لا تستحق أن تكون طبيبًا..

وتعالت الأصوات.. حتى نهض البعض صائحين غاضبين.. ونهض آخرين يهزون رءوسهم في حنق عازمين على الانصراف...

وهنا خرج الدكتور محمد عن صمته.. كان يعلم أن الأمر سيزداد ويتأجج.. ذاك أن المفاجأة كانت من عيار ثقيل جدًّا من العسير أن يتحملها الحضور ويتقبلها بتلك البساطة.. أن تخبرهم بأن الطب سوف يتضاءل كثيرًا.. ويكاد أهم علوم الأرض قاطبة أن يندثر إلى الأبد بسبب اكتشاف أو اختراع واحد.. فهذا لن يكون أبدًا يسير الوطأة على نفوس هؤلاء.

خلية واحدة عجيبة لها القدرة على تنظيف الجسد بأكمله من كل ما يؤذيه.. سواء كانت أجسام غزته من الخارج.. أو حتى خلايا سقمت أو فقد الجسد السيطرة عليها.. هذا لا شك خيال حالم خصب.

قال الدكتور محمد: أعلم أن الأمر يتطلب مني أكثر من مجرد فيديو وكلمات لكي تصدقوه.. والحقيقة أن هذا الكشف ليس مكتملًا مائة بالمائة.. ولا زال قيد الدراسة والتمحيص.. ولكن دعوني أؤكد لكم أنه على وشك الانتهاء.. والأمر في النهاية لن يكون عسير التأكيد بالنسبة إلى علماء أمثالكم.. فتجارب بسيطة يستطيعها أي منا قادرة على إثبات هذا الأمر أو نفيه.. ولكن أرجوكم أن تلزموا الهدوء.. ودعوني أحدثكم عن هذه الخلية السوداء وكيف توصلنا إليها.. أظن هذا الأمر يهمكم جميعًا...

ساد الصمت على الفور.. كانت ثقة الدكتور محمد وروعة ما رآه الحضور وشغفهم الهائل للتأكد منه قد غلبت عليهم في هذه اللحظات.. نقل بصره بينهم للحظات ثم تنحنح وبدأ يتكلم...

- تعلمون جميعًا الخلايا الجذعية، وكيف توجهت إليها أنظار العالم في الآونة الأخيرة كأمل واعد في علاج شتى الأمراض.. فالخلايا الجذعية التي أطلق عليها العلماء

(Master Cells) هي الخلايا الأولية التي تنقسم لينتج عنها مختلف خلايا الجسم وأعضائه.. والخلايا الجذعية بالطبع – كما تعلمون – ليست نوعًا واحدًا.. بل هي أنواع شتى.. تبدأ من الخلايا الجذعية الجنينية.. التي لا تلبث أن تنقسم لتعطي مزيدًا من التخصص وتكون الخلايا الجذعية البالغة المتخصصة.. وهذه الأخيرة هي المسئول المباشر عن الانقسام لإنتاج شتى أنواع خلايا الجسم وأعضائه.. من هذه الخلايا الجذعية البالغة المتخصصة يتركز اهتمامنا على الخلايا الجذعية الدموية المسئولة عن تكوين خلايا الدم المختلفة(*).. ومن هذه النقطة تبدأ قصة الخلية السوداء...

تابع الدكتور محمد: بدأ الأمر بفكرة غريبة نوعًا ما راودتني فجأة.. فهذه الخلايا الجذعية – التي هي لبنة الأساس للجسد الحي – تمتلئ بأسرار لا حصر لها.. ولأنها خلايا تمتلك قدرة عالية على الانقسام والتشكل أضحت أمل البشرية القادم في نقلة غير مسبوقة في الطب وعلاج الأمراض.. بيد أنني تأملتها قليلًا.. واستوقفني سؤال بدا لأول وهلة سؤال غير ذي معنى.. فماذا لو استخدمنا الخلايا الجذعية بطريقة عكسية.. بمعنى آخر.. إذا كان اعتماد الأطباء في طموحاتهم على قدرات الخلايا الجذعية العالية في الانقسام والتحور، فماذا لو عكسنا الأمر ومنعنا هذه الخلايا من الانقسام؟

(*) حقائق علمية.

وما أعنيه ليس منع الخلية الجذعية من التكاثر.. وإنما منع الخلايا المتكاثرة من الانفصال.. حيث ستنقسم النواة وتتمايز دون أن ينقسم السيتوبلازم.. مما يعني إبقاءها في بوتقة الخلية الأم.. كما يحدث في بعض الخلايا الملتهمة (Macrophages) التي تنقسم نواها دون أن تنقسم الخلية ذاتها لتكون ما يعرف بالخلايا العملاقة (Giant Cells)؛ بحيث تصبح الخلية الجذعية برغم انقسامها كأنما هي خلية واحدة لها عدة أنوية.. كأنما دمجنا عدة خلايا وضغطناها لتنتج خلية واحدة كبيرة(*).

ووقفت أمام تطبيق هذه الفكرة معوقات عدة.. كان أبرزها وأعقدها أن نجبر الخلايا الجذعية التي تميل في أساسها إلى الانقسام والتحور إلى عدم الانقسام.. وكان أن توصلنا إلى طريقة مكنتنا من ذلك..

وجدنا أن الخلايا الجذعية لها نشاط كهربائي ملحوظ أثناء الانقسام.. وبتعريضها لكمية مدروسة من الإشعاع النووي استطعنا التأثير على تلك الخواص الكهربائية فمنعناها من الانقسام الخارجي.. بينما استمرت النواة في الانقسام والتحور.. حتى وصلنا إلى أقصى عدد من الأنوية التي تتحملها

(*) حقائق علمية.

الخلية وتتسع لها دون أن تُدمَّر.. ثم عرَّضناها لجرعة أكبر من ذلك الإشعاع النووي؛ فأوقفنا الأنوية عن الانقسام كذلك.. وأعطينا الخلية حالة من الاستقرار والثبات النسبي.. ولذلك نراها خلية سوداء كبيرة؛ بسبب تزاحم الأنوية بداخلها..

وهنا حدثت المفاجأة الكبرى وتكونت خلية.. ولما بدأنا في دراستها ومراقبتها أصبنا بذهول عارم..

هذه الخلية أشبه بجهاز مناعي كامل متكامل وإن كانت أقوى وأفضل.. هذه الخلية السوداء وجدنا فيها معظم صفات خلايا الدم ووظائفها.. بل وأكثر من ذلك.. فهي - بادئ الأمر - تفرز سائلًا أسود يتكون من بروتينات ودهون معقدة.. هذا السائل يشكل جسرًا واصلًا بين الخلية السوداء والبيئة المحيطة بها.. وهذا السائل سريع الانتشار في الدم.. وبرغم ذلك فهو يتحلل في غضون دقائق إلى نواتج تفرز سريعًا ولا تمثل أي ضرر على الجسم البشري.. أي خلية أو جسيم أو أيًّا ما كان يصل إليه هذا السائل فإنه يتخلله بسهولة ثم يقوم بوظيفة عجيبة للغاية.. فهو يقوم بتحليل مكونات هذه الخلية أو الجسيم عن طريق تأثيرها على مكونات هذا السائل.. ثم يقوم بإرسال إشارات ميكانيكية إلى الخلية السوداء التي تقوم بتحليلها لمعرفة ما إذا كانت هذه الخلية أو الجسيم يشكل ضررًا ما على الجسد العائل..

هي وظيفة معقدة للغاية.. ولكن هذه الخلية المذهلة تقوم بها في لحظات معدودة.. ثم تفرز خلايا ملتهمة رهيبة تحتوي هذا الجسيم الغريب وتحلله بواسطة إنزيمات شديدة الفتك.. ثم تتحلل هذه الخلايا الملتهمة بدورها إلى نواتج غير ضارة سريعة الإفراز من الجسد...

والحق أقول.. إن الأمر أشبه بحلم جميل.. ولكنها الحقيقة.. وهذا هو العلم الذي ما فتئ يذيب حواجز الخيال..

وبرغم هذا فإني لا زلت أؤكد بأن الدراسات لم تنته بعد على هذه الخلية السوداء الجبارة.. وبرغم أنه إلى الآن لم نر لها ولا فيها عيبًا واحدًا.. إلا أن الأمر لم يزل طور الدراسة.. ولا زلنا غير موقنين بأنها مسالمة مستقرة.

صمت الدكتور محمد لهنيهة.. وأخذ يتطلع إلى الحاضرين الذين سادهم صمت ووجوم دل على حيرتهم وتخبطهم في شكوكهم..

التقط الدكتور محمد نفسًا عميقًا.. واستطرد قائلًا: بالطبع كما هو معلوم لدى سيادتكم أن الخلية الجذعية الأم التي تتحول إلى الخلية السوداء لا بد وأن تكون خلية جذعية بالغة من نفس الجسم الذي ستزرع فيه لاحقًا؛ حتى لا يحاربها جهاز المناعة باعتبارها جسمًا غريبًا دخيلًا.. ولقد استغرقت تلك الخلية الجذعية أثناء تجربتنا حتى تتحول لخلية سوداء ما يقارب

شهرًا كاملًا.. وبالطبع لا يخفى عليكم أن التجربة لم تكن بهذه السهولة.. بل إن لها شروطًا قاسية وظروفًا خاصة هي التي كفلت لنا هذا النجاح المبدئي.. ولكني بسطت الأمر إلى سيادتكم لضيق الوقت حتى يتسنى لنا نشر بحث علمي متكامل فور أن نتأكد ونستيقن تمامًا من درجة أمانها وسلامتها على الجسم البشري.. وهذا كما تعلمون جميعًا سوف يستغرقنا بعض الوقت قد يصل لبضع سنين.. وهذا أمر محتم لا يمكن تفاديه.. حتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه.. ولكن عزاؤنا أنها لو صَحَّت فستكون نقلة غير مسبوقة في الطب وحبل النجاة لملايين البشر الذين طالما فتكت بهم أمراض استعصت علينا كالإيدز والسرطانات المختلفة..

شكرًا جزيلًا لكم.

قالها.. ثم جمع أوراقه ورتبها لينصرف.. تاركًا عيون الجميع تلاحقه في مزيج من الصدمة والانبهار.. لم يصدقوا ذاك الذي رأته عيونهمُ وسمعته آذانهم.. كشف لو صح فسيكون علامة فارقة في علم الطب برمته..بل سيصبح هو جوهر علم الطب.. ليس هذا فحسب..ولكن أن يخرج بهذا الكشف طبيب عربي!!

هذا في حد ذاته جزء من صدمتهم.. أراد الكثيرين منهم مهاجمته وتكذيبه.. إلا أنه كان حازمًا.. واضحًا.. ودقيقًا.. ولم يطلب من أحد أن يصدقه.. بل أخبرهم جميعًا أن هذا

الكشف لا يزال في مرحلة التطوير و لم يكتمل بعد.. وأن أمامه وقتًا ليس بالقصير كي يحقق ما يرجى منه..

وعندما صعد طبيب آخر ليلقي بكلمته العلمية.. لم تصل كلمة واحدة مما قالها إلى عقول الجالسين..إذ تاهت عقول الجميع في آفاق رحبة إلى تطور طبي غير مسبوق يرتكز في جوهره على هذه الخلية الرهيبة...

الخلية السوداء..

يدخل الضوء.. يخرج الضوء

مروه عاطف محمد

النهاية..

لم يدم بقاؤه طويلًا.. كانت الأم خائرة القوى.. تائهــة.. قالت: هو قتلها.. وأنا أرسلتها لذبحها..

يدخل الضوء ويخرج الضوء...

يجلس الأب ووجهه في الأرض وعقله في مكــان آخــر.. وقال: أجلها.. ولكل أجل كتاب..

يدخل الضوء.. ويخرج الضوء...

الجزء الأول..

أخيرًا هناك من أراد أن يتكلم..

الصديقة حاملة السر...

قالت: لا أعرف من أين أبدأ.. فالبدايات كــثيرة لنهايــة واحدة.. كانت جميلة وذكية.. أحبــها شــيطان الإنــس.. ورفضت.. تآمر مع حليفة له...

- عايزها تموت وهي حية.

- بسيطة..

- عايز جمالها يدبل.. زي شجرة في الخريف.

قامت وانتزعت وردة، وقرأت عليها، وتمتمت بلغة وكلمات غريبة.. ثم ألقتها في موقد ناري..

كانت صديقتي ترتدي ملابسها أمام مرآتها.. وفجأة راودتها فكرة.. لم كل هذا؟.. ارتدت السواد وخرجت من بيتها، ورغم هذا تابعتها عيونهم؛ ما بين إعجاب وحسد.. تلك كانت نظراتهم، حتى انقطع الحزام الذى كانت تربطه على خصرها.. وعندها حمدت الله لأنه يلفت النظر..

قالت الحليفة للفتى: أنت لا تحتاج لسحري.. عيونهم كافية.

قال: ولكني أريد تدميرها.. وتدمير كل أثر لها، أريد أن يسقط هذا الصرح المرد بالذهب الذي صنعه الناس لها، وأن يستبدلوه بسلسلة من الفضائح والقذارة.

واستمرا أيامًا وليالٍ جالسين بجوار بعضهما، هي تدمر وهو يدفع لها، تقول له: إن فتاتك تمشط شعرها..

يقول: أريده أن يسقط.

تُحضر دمية، تنغزها في قلبها بدبوس، وتقطع شعر الدمية وترميه في النار...

وتتعجب صديقتي، شعرها يتساقط مثل سقوط الشلال، وتعلل هذا بتغير الفصول ودخول الشتاء..

تقول الحليفة: لديها موعد عمل.

يقول الفتى: أسكتي لسانها، فهي فصيحة، تسحر الناس بصوتها وفصاحة كلماتها.

تحضر لسانًا مجهول المصدر، تدقه بمسامير وتتلو تعويذاتها، وصديقتي في موعدها لا يوجه لها أحد كلام، وعندما جاء دورها في الحديث، ظلت تسعل وتتلعثم؛ حتى صرخ أحدهم بوجهها وقال: إذا كنتِ خائفة هكذا في المقابلة.. فكيف ستكونين في العمل؟!

وظل يقول.. واستمرت في سحرها.. استمرت في بناء الحوائط والسدود.. أما صديقتي فلا تُقبل في عمل.. ولا في عين رجل.. وابتعدت عن الأصحاب.. وصاحبها الاكتئاب وأوجاع الجسد.. وأوجاع الروح أكثر إيلامًا، وزارت الأطباء.. واحتست أنواعًا عديدة من الدواء.. بلا فائدة.

وكانت ذروة شرهم في ذلك الشر غير المشعور به، لقد أسالوا دم طهارتها في بحيرة ماء..

أرسلا لها هذا الجني غمنار ينظر لها من بعيد.. يتأمل حسنها.. فعينيه لا يمسهما سحر.. يتمناها وهي نائمة.. يتحسس جسدها.. يدخل وراءها ليراها وهي تستحم.. وهي تفرج عن أنوثتها المسجونة خلف الملابس الشتوية.. تثيره.. ويتمنى الالتحام.. ولكن تسجن رغبته مثل أنوثتها..

يدخل الضوء ويخرج الضوء..

الجزء الثاني..

الجن أكثر حنانًا من بني الإنس.. تابعت الفتاة الحكي عن صديقتها...

على يد غمنار استراحت عدة أيام، لقد زارها مرة في عالم الأحلام، بنى لها تلك الحديقة الوردية، وتنكر في شكل ذلك الفتى الذي افتتنت به من الأفلام السينمائية، وأخيرًا ضمها إلى صدره في رقصتهما الأولى التي دائمًا حلمت بها، وعندما كاد أن يقبلها استيقظت، أكثر ما أمتعه ليلتها أنه شعر بعاطفة تكنّها له، كان المسكين إلى هذه الدرجة يائس في حبها..

وعندما علمت الساحرة اشتد الصراع بينهما، أخبرها بأنه يحبها ويريد أن يتزوجها؛ فأحرقته.. وحزن إخوانه من أجله، لكنهم مجندين في مهمة ليس أماميم إلا إتمامها.

يدخل ضوء ويخرج ضوء..

الجزء الثالث..

حضر موكب الساحرة وحراسها إلى حجرة الفتاة وهي نائمة.. أمرهم بأن يقيدوها وهي نائمة، زما إن أصدرت فرمانها حتى وقفوا صفين بجوار جسدها، وبالسلاسل الفولاذية

السحرية التي تتغلغل داخل الجسد فيثقل ويغرق في بحر النوم.. ثم ربطها..

– ضعوا في أذنيها سدادات فلا تسمع.. وأغروهـا بـأمتع الأحلام.. وأظهروا أمام عينيها أكثر رغباتها حقارة.. دعوهـا تنغمس في ملذّاتها.. ودعوا الأمر يختلط عليها.. هل هذا حلـم أم حقيقة..

وأثناء كل هذا.. اخترق أنت كمشرقها واربطها؛ فلا يجـب أن يكون لها أولاد يرثون عذابها، وأنتِ يا من تهوين الألعـاب البهلوانية.. لديكِ أمعاؤها فهي مدينتك..

وأنت اذهب إلى والديها وأمسك أذنيهما.. ووسوس لهما.. كيف يصدقانها في رفضها للزواج بحجة العمل والعلم والحرية.. لقد ارتكبت الخطيئة.. ولا بد أن ينكشف سرها..

واستمرت الأسحار بالليل والنهار.. واستمر الضرر عـدة سنوات.. المشكلات تلي فيها المشكلات.. وبلغ الأمر بالفتـاة إلى حد الزهد في الدنيا والرغبة في الموت...

كانت تقول: أنا ذاهبة إلى الله.. فهل هذا كفر؟!

وعلموا بنيتها.. وكررت محاولتها.. وازداد التعب..

يدخل ضوء.. يخرج ضوء..

الوعي والرغبة في اللاوعي...

ما بين الوعي والرغبة في اللاوعي كانت حالتها، وهي حالة لطالما أحبتها في أي وقت إلا الآن.

فقد جلسوا جميعًا فوق رأسها يتسامرون، والدتها.. جاراتها.. جدتها.. رفيقات والدتها.. يرثون لحالها ويدلون باقتراحاتهم..

- ودّيها للشيخ مصطفى في طنطا.. ده ابن اختي في الفلاحين كان في أول جوازه مربوط ومش طايق مراته، وراسه وألف سيف ليطلقها.. لولا الشيخ مصطفى.. ده سره باتع.

كانت والدتها تستمع جيدًا وتومئ برأسها..

ثم أمسكت أخرى بطرف الحديث، وقالت: خليها تيجي معايا الكنيسة.. أخلي أبونا يصلي لها ويشوف ما لها.

تندهش الأم من الفكرة ولا ترفضها.. واقتراح آخر بأن تذهب في رحلة لزيارة أولياء الله الصالحين، في نفس الوقت أحضرت خالتها المبخرة النحاسية، وانطلقت روائح البخور، وأحضرت أيضًا عروسًا ورقية، مسحت بها وجه صديقتي، وبإبرة معدنية أخذت تغرز العروسة وتردد:

- شيح شيح.. بخور النبي المليح، النبي نبي.. كان زيـــن.. وعصاه عصا الملكين، سيدنا سليمان شاف العين.. قاها رايحـــة: فين يا عين.. قالت له رايحة لراضعي اللبن وراكبي الخيل، قاها انبسّي انبسّي.. لاقفل عليكي حُقّي النحاسي.. عين البت فيها نت.. عين المرة فيها خرة.. عين الراجل فيها طاجن.. عين اللي شافك ولا صلاش على النبي منه لله...

من عين أمك.. من عين أبوكي.. من عين.. ومن عـــين.. وظلت تنغز بالإبرة، ثم أحرقت العروسة.

وإذ بها تصيح: بصوا، بصوا.. عيون مش عايزة تتحـــرق، محسودة يا عيني يا بنتي، شايفين بتتكور ازاي بعد ما رميتها مع الشبّة؟!!

يا مصيبتي.. تعبان.. اتكورت وبقت تعبان...

يدخل ضوء ويخرج ضوء..

الكريستالة..

لم يدُم الضوء هذه المرة وقتًا طويلًا؛ لأنه أمر بهذا، وأمـــر مطاع؛ لأنه المنقذ المخلّص.. كان شيخًا أزهريًّا شُهِد له بطول الباع، وجلسوا جميعًا، وبدأ يقرأ، أخبرهم بأنها مصابة بـــسحر شديد، وعندما رفض عقلها قوله، ونطق لسانه بهذا، وكانـــت حجتها: من أنا ليلجأوا لهذه الحيل معي؟!

أخبرها بأنه سيجعلها ترى...

كانت كريستالية الشفافية، رأت كل تلك الأمــور الــتي أخبرتك بها وأكثر، أمور تحدث في أماكن فرعونية، وأمــاكن خيالية، وأماكن معتادة مثل جامعتها، انتبه الشيخ لموهبتــها.. ولحسنها أيضًا..

وفي إحدى الجلسات تطلعت يداه إلى ما لا ينبغي أن يتطلع له.. احتارت هي، هل هذا طبيعي أم ماذا؟ وتكرر هذا بشكل أعمق...

هنا كان لا بد من وضع مسمى لمــا يحــدث؛ فواجهتــه، فأخبرها وعينيه مخزيتين.. بأنه ضعف أمام حسنها.

وهنا.. في عينيها انهارت الأخلاق، إنه رجل دين، كيف له أن...؟! وماذا تفعل في لحظات مثل تلك؟!

حين تختل المعايير..

ما أغراه بها لم يكن جمالها فحسب، إنمــا تلــك الموهبــة ونقاؤها، مما زيَّن في عينيه الرغبة في امتلاكها، تلك المخلوقــة هي كنز لا يقدره سوى من يعرف، إن كل الأغطية – بقليــل من الجهد – مكشوفة أمام عينيها، إذن فلم لا؟ إن كــل مــا يحتاجه هو مجرد غطاء شرعي؟ فليعطهم ما يريدون.. ولكن هل تريده هي؟

يدخل ضوء...... ويخرج ضوء..

هو..

دخل الضوء حياقا عبره.. ولكن كمثل انفجار نجم سرعان ما انطفأ.. تركها فجأة بعد الكثير من الإعـداد والاستعداد، تركها فجأة.. وتساءلت: هل ما زالت قوى الشر هذه تعمل؟ أم إن خوفها من فقدانه تحول إلى حقيقة؟

عند البدء لم يكن هكذا.. كان المحب العاشق الولهان، كان يريد بناء كل الجسور، وتعمير كل الجزر.. بمفرده.

كأنها ارتبطت برجلين.. في البدء كان... أما الآن.. فهـو من جعلها تشعر بأنها ملعونة، وأن بداخلها فيروسًـا أو لعنـة تطرد كل من يقترب منها.

رغم أنها في البدء كانت المتحفظة الآنفـة.. هـل تعلـم سيدي.. كانت تريد أن تتخلص منه.. لكن هو.. هو جعلـها تحبه.. حولها إلى عاشقة محاربة.. هو الآخر قتلها..

كل شيء كان ثقيلًا على نفسها.. لم تعد تحب الاختـلاط بالبشر أو معاشرتهم.. اعتقدت أن هناك أشياء أخـرى يمكـن معاشرتها..

يدخل ضوء.... ويخرج ضوء..

كان من الأفضل أن...

حاولنا توليد الضوء والاحتفاظ به...

يومها جلست أنا وهي، أنا صديقتها الوحيدة الباقية المتبقية، كنا نشاهد بعض الصور الفوتوغرافية.. صور حفل تخرجنا.. عندها قلت لها: لماذا لم تكملي في هذا؟.. كنتِ تجيدين أشياء كثيرة.. تألقتِ في هذا اليوم...

قالت: ربما لوجوده هناك.

أجبتها: ولكن أنتِ صاحبة مبدأ التزيُّن للنفس.

كلمات وبضع ضحكات مصطنعة لتخفي الدموع التي ترقرقت في عينيها، أمعنت النظر قليلًا في الصور، وقالت: ازداد وزني.

أومأت برأسي وضحكت وقلت: ليس كثيرًا..

حاولت تغيير الموضوع حتى لا تزداد حالة الرثاء للنفس هذه قتامة، وقلت: فستان حفل التخرج هذا.. أنتِ قمتِ بزخرفته وتزيينه؟

- نعم.. كنت أفكر في شيء جديد، فصنعت هذا بخامات مختلفة؛ قش وأزرار وبعض الفرو.

- لماذا لا تكرري هذا؟!

- ولماذا؟!.. ليس لدي شيء.

- أتعلمين؟! يمكنك أن تعملي بهذا، أليس هذا أفضل من الجلوس بالمنزل؟!

كانت تمر بمنحدر في حياتها.. لم تكن المشكلة بالمنحدر.. المشكلة في الأمان.. لقد أدركت أن الاتكاء على البشر ليس آمنًا، وأن عليها احتضان نفسها بنفسها واسترجاع ذاتها.. وكانت قد بدأت تخطو بضع خطوات في هذا الطريق.. حتى...

يدخل الضوء.... ويخرج الضوء..

الأخير..

كانت هذه هي المرة الأخيرة.. الصباح الأخير الذي بدأته والدتها بحلم غريب ثم بكاء...

- يا رب.. بقى كل ما حد يتقدم يمشي كده في سكات.. يا حول الله يا ربي.

قالت أمها هذه الكلمات ثم خبطت على فخذيها بقوة وعصبية..

- ده مش معقول.. في شيخ عايش في الجبل بيقولوا عليه جامد وسره باتع.. لازم نروح له.

واعترض الأب، لكن أمام إصرار الأم خنع ورضي، كـان حزنها قد ألغى عقلها؛ خاصة عندما كان هذا اليوم ذكرى نهاية قصة حبها الوحيدة.. وازدادت رغبتها في استرجاع فتاهـا.. كانت مستعدة للمضي قدمًا في أي درب.

انطلقا هي ووالدتها في رحلة إلى هذا الشيخ.. وبعد انتظـار طويل ومعاناة دخلتا إليه.. ظل يقرأ عليها ما قال إنـه آيـات قرآنية، وبعد أن انتهى أخبرته بأن هناك ألم في معدتها، أعطاها سائلًا، وطلب منها أن تشربه.. لم يستقر في جوفها حتى بدأت في التقيؤ..

حينها صاح الشيخ وقال: انظري.. انظري.. كرات الشعر هذه كانت في جوفها.. هذا هو السحر.

كانت تشعر بالدوار، ولا تملك سوى أن تـصدق علـى روايته، ووالدتها مرتبكة، ثم أخبرته بأنها ما زالت تشعر بـبعض التعب.. فقرأ وقرأ، وطلب من تلك الأرواح الشريرة أن تحضر، ولكن بدون جدوى...

فكان له لأسلوبه الخاص.. الضرب بتلك العصا السميكة.. وكانت أرق من هذا..

يدخل الضوء.... ويخرج الضوء..

الخروج النهائي.. وهو روحها..

وتركنا للظلام السرمدي..

الظلام السرمدي يأكلنا انتقامًا لها...

أراجوز حب

مصطفى سليم

أتت بقطعة قماش قديمة بالية، خاطتها سريعًا، رسمت أشباه عيون ويدين، أتمت العمل بالباسي الطرطور، وها هي تلبسني بيدها حيث تروي عن طريقي كل حكاياها، أميل حين تميل يدها، أبكي حين تصدر صوتًا حزينًا، أضحك حين تفرد أصابعها بداخلي ويهز المكان صوت قهقهتها.

.بمرور زمن ليس بالطويل، ضاقت باحتوائي ليدها، وأحست بأن الحرارة المنبعثة منها وكأني أنا من أفتعلها، ولكن الحقيقة أن أشباه المخلوقات مثلي لا يفعلون، يُفعل بهم دائمًا.

تركتني ملقى وراء قطعة من الخشب لا أمل لي في أن تلبسني حتى يد أخرى غير يدها، فكان لزامًا عليها أن تمزقني قبل الرحيل، أن تعيدني إلى مكوناتي الأصلية كي يستخدم غيرها حتى ولو أجزاء مني، لكن سريعا عرفت المغزى، فلقد أحبتني، ذهبت فقط لكي تجرب أنواعًا أخرى من القماش تستخدمه لصنع دمية أخرى تكون أكثر راحة، ولا تبعث حرارة كانت قد أرهقتها، فرجعت لتبحث عني بعد أن أيقنت أن الحرارة تلك تنبعث من يدها هي، لكنها وجدتني وقد بليت، مغطى

بالتراب، يسكنني الحشرات، وقد أصبح قماشي صلبًا من تقلبات الزمان عليه، نسج عنكبوت شباك القيد بيدي، عادت وقد قرض فأر طرف طرطوري ليشوه أكثر شيء يميزني بين العرائس، بكت فوق أطلالي، غمرت دموعها جسدي الخاوي، فما كانت دموعها إلا غسولًا لعيونها، وزيادة في تلويث كومتي.

الخطيئة العاشرة

مصطفى طارق جبر

قصص لم أكتبها

هذه القصص لم أكتبها.. لكنها وُجِدت دون إرادة مني..

القصة الأولى

لحن الحياة

الشارع المؤدي إلى بيتي أقضي فيه معظم الوقت، يلتصق به لحن غريب أسمعه كل مرة، هو لحن الحياة، وفي كل مرة يأتي من شخص مختلف، اتفقوا عليه دون أن يعلموا، لا أسمعه إلا هنا.

تمت

القصة الثانية

حفيد جيفارا

لم تصدق عيني ما أتى به القدر، ربما مرَّ من أمامي سنين طويلة في هذا الحي الذي أسكن فيه، لكني لم أره إلا اليوم، يتطابق مع جيفارا في كل شيء، إنه هو بكل تفاصيله، كنت أعلم أن أمثال هذا الرجل له أتباع يحملون رسالته، وأرجِّح أنهم

أحفاده، فجيفارا رجل حكيم، يعلم أن البشرية ستحتاج إلى أشباهه، الآن ينتهي الظلم، وتبدأ الثورة، إنها الثورة التي طالما هابها الفاسدون.. وظنوا أن جيفارا قد انتهى.

اليوم رأيته.. هذا الثائر الصغير.. ينطلق في الشارع، أترقب بكل فرحة خطوته القادمة، ما هذا؟ إنه يضرب أبناء الحي ليعطوه من قوت يومهم، ضاعت الثورة وضاع معها كل شيء، يبدو أن جيفارا لم يكن بهذه الدرجة العالية من الذكاء.

تمت

القصة الثالثة

الجدار العازل

غاب الحاج سلامة طويلًا عن محله الكبير، ولم يظهر ابنه الأكبر عباس منذ شهور طويلة، واليوم وجدتُ المحل الكبير وقد قطعه الجدار العازل، قسمه عباس إلى عشرة محلات صغيرة – بعدد أبناء الحاج سلامة، لا أستطيع حتى أن أدخل هذه المحلات من شدة ضيقها.. سألت عن السبب، رد عباس: الحاج سلامة مات.

تمت

القصة الرابعة

الحقيقة الحلوة

علمت أن طعم الحقيقة دائمًا ما يكون مرًّا، اقتنعت بهذه الخُرافة طويلًا، حتى أتى هذا اليوم..

الدكتور عادل: أحيانًا يجب أن أُصارح المريض بالحقيقة؛ حتى لو كانت مرة، أنا لا أفعل هذا عادةً.. لكنك صديقي.. أنت لن تستطيع أن تنجب أطفالًا.

كريم: إنها حقيقة حلوة.. لا أريد أن أجلب أطفالًا إلى عالم لا يعرف طعم الحقيقة.

لم تتم

القصة الخامسة

أول العمر

الأم: لماذا تعاملها بهذه الطريقة؟ إنها ابنتك وتستحق منك أن تحاورها.

الأب عباس: لا أعرف لماذا أفعل هذا؟ زرعت القسوة بقلبي دون أن أشعر، ولا ترضى أن تتركني، كم أتمنى أن يعود قلبي لأول العمر؛ فلا يتعلم إلا ما يريد.

تمت

القصة السادسة

الهروب الكبير

يحيى: تعودت أن أهرب إلى دموعي عندما يغلبني من حولي ويرغموني على فعل ما لا أرضى بزعم ما تعودوا عليه، ولكن الآن هربت مني دموعي.

الدكتور أحمد: هذا هو الهروب الكبير، أرى أنك تعودت على ما تعودوا عليه.

لم تتم

القصة السابعة

ساقي الزمان

العجوز إبراهيم : خمرُ الزمان حكايته وذكراه، تزيد قيمته بمرور الوقت، حكايات تكشف لي من أعرفه جيدًا.. أنا...

مصطفى: يجب أن تعيش على ذكريات الماضي فقط، ولا تفعل شيئًا في حياتك، يكفيك ما فعلت..

إبراهيم: لا.. قد شربت من خمر الزمان حتى الثمالة، وذروة لذته أنتظرها منه الآن، وهو أن أكون أنا ساقي الخمر..

مصطفى: لا تتعجل الموت، فأيامك معدودة.

لم تتم

القصة الثامنة

نظرية الإله

الواعظ (٢٠٠ سنة قبل الميلاد): اليوم نتأمل في الطبيعة، لنرى كيف تجلب لنا الخير بكل صوره.

هارون (٦ سنوات): لماذا لا يكون من يسيِّر هذه الطبيعة إلهًا، ومن واجبنا أن نشكره؟

الواعظ: من أين جئت بهذه التخاريف؟ أحيانًا يحدِّثنا الشر بأنفسنا بما يشغلنا عن الحقيقة الواضحة، ويخيفنا بما لا نرى، لو أن هناك إلهًا لرأينا، ولا يصير حديث نفوس.

الواعظ (٢٠١٠ بعد الميلاد): اليوم نشكر الرب على ما وهبنا من نعم، ونصلي للإله حتى ننجو من عذاب الجحيم.

هارون (٢٠ سنة): لماذا نفترض أن لهذا الكون إلهًا؟ لو أن لنا إلهًا لوُلدنا بمعرفته داخلنا، ولشكرناه دون أن تهددنا بنار جحوده.

الواعظ: بل وُلدنا بها، و لكن الله حرمك أنت من هذه المعرفة، وتركك فريسة لنظرية الإله..

لم تتم

القصة التاسعة

رائحة الخطيئة

يوسف: أجد رائحتها في ملابسي.. في الهواء.. دائمة الالتصاق بي.. تتسلل بين رءوس الناس حتى تصل إليّ.. رائحة الخطيئة لا تفارقني أبدًا، لا أجرؤ على الخطيئة ولا أرتكبها، ولكني أحبها، أجد راحتي في الترتيب لها والحديث عنها، وذلك يعطيني الفرصة لأشعر بلذة الخطيئة دون أن يلازمني الندم الإنساني المعتاد بعدها، هذه حقيقة نفسي، أردت أن أطلعك عليها أيها الواعظ.

لن تتم

البداية

جلبت كلمات يوسف ما أدار الواعظ ظهره له طيلة هذه السنين، آن له أن يظهر ويكشف ما استعد له جيدًا، فلا تولد الخطيئة العاشرة، إلا عندما تكتمل الخطايا التسع، يجد ذلك مكتوبًا عنده ولا ينساه، كان يظن أن هذه الخطايا الثمان لن تكتمل أبدًا، لكن يوسف أتى بكل ما خشي يومًا وقوعه، الآن تُولد الخطيئة العاشرة... القتل.

الواعظ: لا ينبغي أن أترك للقدر رفاهية الاختيار، يكفي أنه من اختار هذه القاعدة السخيفة، يجب أن يُقتل أحد ممن يشكّلون هذه الحلقات التسع، على يد واحد منها، في البداية نضع شروط اللعبة، القاتل لا بد أن يكون من مرتكبي الخطايا التسع، والمقتول ممن يتعرضون لظلمهم، هذا يجعل الأمور أكثر منطقية، يستطيع المظلوم أن يرحل عن الدنيا الآن، ويقابل أيًّا من يتحكم في المرحلة التالية لذلك، أما أصحاب الخطايا التسع لا يجب أن ينقص أحد منهم، فلو نقصت الحلقات مرة أخرى سنضطر إلى أن ننتظر أن تكتمل مرة أخرى، وتولد الخطيئة العاشرة ثانية، لكننا لو قتلنا واحدًا منهم و لم ينتقص أصحاب الحلقات التسعة، لن يُولد القتل مرة أخرى.

ذهب الواعظ إلى مصطفى عند العجوز إبراهيم حيث يعتاد الجلوس ليخبره بما توصل إليه..

الواعظ: هو كريم من يجب أن يُقتل، وتموت معه الخطيئة العاشرة، أنا متأكد، ولقد اخترتك أنت لهذه المهمة.

مصطفى: أنا؟ لا أستطيع أن أقتل أحدًا، صدقني، لكني أعرف من يساعدنا، يحيى هو الشخص المطلوب، لن تجد من ينفّذ خطتك إلا صاحب خطيئة الذل، لماذا لا تقتل هارون تلميذك الفاسد؟

الواعظ: هذا الأمر منته، لا فائدة من موت هارون، لقد اخترت كريم وأنا متأكد من اختياري، أما أنت فقد خانك الاختيار مرتين، فصاحب خطيئة الذل لا يقتل أبدًا، أحتاج إلى طبيعة معينة، أظن يوسف هو الشخص المناسب.

اتفقا على ما يجب أن يكون، وعلم يوسف أن الواعظ أمره بما يغير حياته إلى ما يعلمه.

انطلق يوسف إلى ما هو من المقدر له، أراده أم لم يختره، لم يشغل باله كثيرًا، كل ما يعرفه أن الهدف أمامه واضح، ذهب إلى كريم حيث يتردد طويلًا، يبدو أنه منزله، لا يدري ماذا فعل؟ ولكنه استيقظ ليجد جثة كريم مُلقاة على الأرض بجواره، هو متأكد أنه قتله، لا يدري كيف؟ متى؟ لكنه الآن يعرف ما غاب عنه طيلة عمره، يجد ما ذاق أوله فقط، ما أحبه وقضى لحبه السنين، يكرهه الآن في لحظة، الرائحة التي طالما تلذذ بها، ظهرت في أشد قوتها، لكنها أظهرت حقيقتها، كم يكره رائحة الخطيئة، ويكره تلك اللحظات التي جمعتهما.

انتقصت الحلقات التسع مرة أخرى، وُلدت الخطيئة العاشرة حين ماتت.

العصفورة تتحدث

نرمين سعد الدين

في صباح مشرق جميل، استيقظتُ في عُشِّي فرِحة مرحة، ولكني لاحظت شيئًا غريبًا مريبًا يحدث في المترل المقابل لعُشي؛ فانطلقت أنظر من نافذتهم أرقب ما يحدث، رأيت نساء كثيرات، وربَّة المترل مسجَّاة على فراشها تتألم،وتطلق صرخات تلقي في القلب الرعب،حركة سريعة تدور..أشياء تأتي وتذهب.. نساء تدخل الغرفة وتخرج.. وهي ما زالت تتألم، ولكن بعض وقت ليس بالقليل انتظرت به أمام الشرفة أنظر وأترقب،جاء ما كان ينتظرونه جميعًا..جاءت طفلة رائعة الجمال.. تأخذ عقلك وقلبك بمجرد أن تلمحها، تحول الصراخ لبسمات وضحكات متبادلة، وسعادة غامرة ملأت البيت، وملأت قلبي أنا أيضًا.

غمرت السعادة قلبي، وطرت عاليًا أزقزق وأعزف أعذب الألحان؛ احتفالًا بمقدم طفلة ربة المترل التي طالما أحببتها، وطالما عطفت عليَّ هي، عدت إلى عُشي منتشية؛ فوجدت مفاجأة أجمل من سابقتها.. وجدت بيضتي قد أفرخت لي عصفورة رائعة؛ فصارت فرحتي فرحتان، وقررت أن أجعل عصفورتي الصغيرة صديقة للطفلة الجديدة، كما كنت أنا لأمها صديقة.

سرعان ما كبرت الطفلة الجميلة، وكانت تزداد كل يوم جمالًا، وتزداد مرحًا وحبًا للحياة، كانت طفلة مميزة بالفعل، وصارت هي وفرخي الصغير صديقين مقربين.. بمجرد استيقاظها تصفر لها لتذهب تطعمها من طعامها، وتناجيها وتحادثها وكأنها تعلم أنها تفهمها، وكل يوم يزدادان محبة وقربًا، لكن عصفورتي الجميلة صارت حزينة، وكل مرة تذهب لمترلها تعود وهي تذرف الدمع، فهمت من نظرات عصفورتي لطفلتنا الجميلة لِمَ هي حزينة؛ فالطفلة الجميلة المرحة التي تملأ المترل بهجة وفرحة ولدت مختلفة عن أقرانها، وكلما كبرت كلما ظهر أنها مختلفة، ولكن الغريب أنها لم تأبه أبدًا بهذا العيب، ولم يشغل لها بال كما كان يشغل بال صغيرتي، هي مقبلة على الحياة، تتقدم في دراستها، وتجذب لها كل من يقترب منها، صارت ذكية مطلعة تثير دهشة الجميع بأدبها والتزامها وتديُّنها الشديد.

الطفلة الجميلة صارت شابة يافعة، الكل يحسدها لجمالها وذكائها ومحبة الناس لها، ولكنها لم تأبه لكل هذا، ولم تلتفت لا لكلمات مدح ولا لكلمات قدح، ولا حسد وغيرة أقرانها منها، انطلقت تسابق الحياة؛ لتثبت للجميع أنها جديرة بتلك الحياة، حتى وإن كانت أقل من أقرانها أو مختلفة عنهم؛ حتى صارت بعملها أشهر وأمهر مهندسة ديكور، صارت تتقن

عملها كثيرًا، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.. في رحلة الكفاح تلك فقدت الأب والأم أيضًا، لم يكن لها سوى عصفورتي، تزورها كل صباح وتودعها كل مساء.

عندما فقدت الأهل كرست كل حياتها لعملها؛ فصارت كل يوم تزداد نجاحًا وشهرة، لم تكن تعبأ بتعب تكابده كثيرًا، فهي أحبت هذا العمل، ولم يعد لها غيره في الحياة، زادت ثراء وزادت شهرة، ومع ذلك لم تترك منزلها الصغير البسيط مهما حاول الكثيرون إقناعها بذلك.. كانت دائمًا تقول إن الحميمية والاهتمام اللذين تلقاهم هنا لن تجده في الأماكن الأخرى التي يمكن أن تنتقل لها مهما كانت أرقى أو أجمل، ولكنها أخطأت التفكير.. أجل أخطأت التفكير؛ فمن ظنت أنهم سندها وحمايتها في تلك الحياة أصبحوا بتدخلهم في حياتها سبب شقائها وحزنها الذي صار يزداد يومًا بعد يوم، هي كانت تظن أن ظروفها لن تجعلها محط شك أو ريبة أبدًا؛ فمثلها لا يظن به السوء، ولكنها كانت واهمة؛ فالناس في تلك المناطق - التي ظنت أنهم مصدر أمنها وحمايتها - ما زالوا يفكرون بشكل تقليدي مثير للشفقة؛ فكلما كانت تزداد شهرة ونجاحًا يجعلونها تنطلق في أي وقت وتخرج لساعات طوال، كلما كانت الألسن تلوك سيرتها، وتستحل عرضها، والأنفس تزداد حقدًا وحسدًا عليها..

في يوم وليلة تحولت حياهّا لجحيم، كنت أرقبها أنا وعصفورتي من بعيد؛ فنراها شاحبة واجمة، أصبحت شخصًا غير الابنة الجميلة المرحة التي ولدت أمام عيني وراقبتها تكبر يومًا بعد يوم، صارت لا تعبأ بغناء عصفورتي لها، بل كانت كثيرًا لا تلتفت لها أو تفتح نافذهّا لتراها، الصمت ملأ المترل، واختفت عن العيون، تساءل الجميع أين ذهبت.. البعض ظن بها السوء، والبعض الآخر قلق عليها بالفعل، وذات يوم استيقظت عصفورتي في الصباح، وذهبت تزقزق أمام نافذهّا في محاولة منها لاسترضائها أو إقناعها بأن تخرج عن صمتها وحزنها، وترجع لها كما كانت الصديقة المرحة المحبة لها وللجميع، ولكن بمجرد أن اقتربت من مترلها لاحظت شيئًا مريبًا يحدث به، ولاحظت أنا أيضًا، طرت بكل سرعتي لألحق بعصفورتي ونري ما يحدث.. رأينا من نافذة حجرهّا مشهدًا ذكّرني بيوم ولادهّا، ولكنه مختلف بعض الشيء... كان هناك زحام شديد بغرفتها.. رجال ونساء.. نظرت عصفورتي لي نظرة دهشة تسأل عما يحدث.. ولكني لم أستطع أن أجيب عليها؛ فأنا لست بأعلم بما يحدث منها، ولكن سرعان ما زالت حيرهّا وتبدلت بدهشة... لم نصدق ما رأت أعيننا، الرجال بالغرفة وجدوها ملقاة بغرفتها لا تتكلم.. ووجدوا بيدها ورقة مكتوب بها شيء.. اقتربنا أكثر لنسمع ما يقرؤونه...

فضَّ الرجل الورقة وقرأ ما بها..

"تركت لكم دنياكم.. التي حولتموها بإرادتكم لجحيم.. تركتها لكم، واخترت أن أذهب للجحيم بإرادتي، لا سامحكم الله"..

كتبت تلك الجملة بدمها الذي أراقته لتتخلص من جحيم الدنيا الذي صنعه من حولها بأيديهم، عندما سمعت عصفورتي ما قيل.. ورأت صديقتها مسجاة على الأرض والدماء من حولها.. انطلقت مرتعبة.. طارت بالجو عاليًا هربًا من هذا المشهد المميت.. ولكنها لم تفطن لسلك الكهرباء.. فاصطدمت به وسقطت على الأرض وفارقت الحياة، فارقت الحياة يوم أن فارقت طفلتنا الجميلة الحياة.. وكأن مصيرها وقدرها مرتبط بها.. ولدت معها وفارقت الحياة معها.. وتركني الاثنتان أذرف الدمع.. وأتحسر على أيام يا ليتها دامت.. ولكن ماذا بيدي أن أفعل؟ فسحقًا لحياة يحكمها الأنذال والأفكار البالية.

•

الحلم

نوران حسن شعراوي

يحمل كل يوم جديد للبعض قدرًا كبير من الأمل، ويحمل لبعض آخر فرصة للانكسار قد يصل إلى اليأس.. نمت كثيرًا اليوم.. ليتني لم أصحُ.. ليتني لم أكن.. عيني تؤلمني من قسوة دموعي.. وستقسو أشعة الشمس المقتحمة غرفتي بدورها علي بقوتها وجرأتها.. فلأكتفي بآلام رأسي التي لم تفارقني طيلة الأيام الماضية، ولأبقى مغمضة العين.. شتان الفرق بين اليوم ونظيره من شهر سابق.. كنت أستيقظ وإلى جانبي رجل كان لي الأمل والأمان.. كانت كل أيامي له.. كان يملك عليَّ عقلي وقلبي وكل ما هو حي فيَ.. كنت أودِع عنده كل ما لدي من أحلام.. وكان أهلًا لحفظها وتنميتها.. أسبغت عليه كل ما لدي من حب وتقدير واهتمام ومؤازرة.. كان - وما زال - كل الحب؛ حيث لا كراهية في الأفق، كان العطف؛ حيث لا أكبر من حضنه مكان.. كان مثلي الأعلى؛ رغم أنه لا يكبرني في السن.. لم يمت رجلي.. ولن يموت في أفقي ما دام نبض قلبي.. طعن ولم يمت.. طعن في شهامته ورجولته.. رجولته المتفردة.. حيث لا رجال غيره.. طعن في هدفه.. في

مشروع عمره..كان يرنو إلى إيقاظ النائمين ودعم المستيقظين..سيق إلى مكان تنزع فيه كرامة الأعزاء، وتشبع فيه النفوس بالإهانة.. كان سديد الخطى؛ فاقترب من تحقيق حلمه..لهذا كان العقاب..اخترق بعقله الراجح عقول الآخرين..قدم الفكر المنظم لحياة الكرامة والشجاعة شعارها وشراعها.. لم يسعَ لامتلاك المال، بل إعلاء مبادئ قوية راسخة، أطاحت بها قلة غابرة.. كان السهر لا يكفينا لإنهاء العمل.. نبحر في الكتب والمقالات، ننظم الأفكار، ندون الحلول، نراجع ونسد الثغرات، نحضِّر للنشر.

لم أشعر يومًا بقدري قدر ما كنت في كنفه.. رأسي تُعتصر.. الألم يتفاقم.. اليوم أنا أبدأ رحلة الضياع، وهو يبدأ رحلة الطمس.. لم يضع الهدف مثلنا، فقط ينتظر بطل آخر ليتبناه ويشمله بهمته.

جرس التليفون...

لولا قلق أمي عليَّ لما رديت، ليست أمي، إنه هشام مدير المكتب..

- ..... لا لن آتي اليوم.

أعود لخمولي.. لم تؤلمني الشمس، لقد فتحت عيني بسرعة دون إمعان في استقبال الألم.. ترى هل أفتح الستائر؟ هل أنظر

للمرآة؟ هل أقوم بترتيب البيت؟ هل أنظف حجرة المكتب؟ هل أرتب الورق و الأفكار؟ هل أجازف؟ أهناك خسارة أكبر مما وقعت؟

أنا مهزومة بقدر لا يسمح لي بمجرد التطرق لفكرة الاستمرار، وهذا يؤلمني بدوره، ليس فقط لاعترافي بضعفي، إنما لحيودي عما تعاهدنا عليه.. أتذكر هذا اليوم - يوم العهد - نظر في عيني وقال مازحًا: "إن تخليتِ عن حلمنا، سأتزوج من أخرى....."..

لن أفكر كثيرًا، سأنهض إلى المكتب، هناك أشياء كثيرة لم تُنجز بعد، الطريق ليس سهلًا بالطبع،ماذا كنت أنتظر؟ سأتصل بهشام ليحضر لي النسخة التي مُنِعت من النشر، ربما لو نقحتها بمعاونة بعض الزملاء دون تشويش الفكرة الرئيسة، لتمكنت من النشر..سأقدم لك يا عمري الحرية بداخل سجنك، سأهمش القيود وأسفّه القضبان؛ليخترق الأمل السكون وتبقى حيًّا بحلم النهوض.

ذلك المخبري... الـ..

وسام دبليز

كانت يدهُ السمراء المشعرة هي أول يد تمسُّني بتيار كهربائي فتشعل الحرائق، وضعَ راحةَ يده اليُسرىً تحتَ مرفقي، فشعرتُ بذبذبات تهزُّ قلبي برفق، فيكادُ يسقطُ سقوطَ الياسمين حين تداعبهُ النسمّاتُ اللطيفة.. أمسكَ كفي برفق ووضعهُ على حافة الكرسي الأسود.

خفقَ قلبي كما لو أن طائرة أقلعت به، وتسارع نبضي، واضطربَ إيقاعُ تنفسي،فلم أستطع إيجادَ طريقةٍ للهروبِ من تلك الحالة.

وضعَ ربطةً خضراء اللون فوق مرفقي،وطلبَ مني النظرَ إلى الجهةِ الأخرى.

شعرتُ بأنفاسهِ الحارة تصطدمُ بيدي، فخلْتُ للحظة أنه سيقبلها.

وعندما طلبَ مني فتحَ عيني كدتُ أصرخ: لم أشعر بشيء.. هل حقًا سحبت هذا الدم مني؟

منذُ تلك اللحظة أدركتُ أنه حقنني أيضًا بترياق الحب فأُصبت بالحمَّى،وكان دوائي وبلسمي كل يوم هو سماع صوته يرنُّ بعصبية: ألو.. ألو.. من المتكلم؟!

كانت أنفاسهُ التنينية تتسللُ عبر سلكِ الهاتف لتصطدم بوجهي فأكادُ أسقط أرضًا.

أغلقُ السماعة وأضحكُ هامسةً في سري: كم أحبك.

وعندما طوّر فيروس الحب نفسه، فلم تعد تنفعُ معه عقاقير صوتهُ الممتلئ بالتهذيب، غرقتُ أكثر في بحره، وكان هو السفينة التي تستطيع إنقاذي.

أعددتُ نفسي لإعادة التحاليل، وحمّلت كريات الدم بكل ما أريد إخباره به من هيام وشوق، وأعطيتُها الكثير من الرسائل التي كتبتها لهُ في لحظاتِ حنيني لصوته.

وأخبرتها أن لا تتردد في أخباره بأنني العاشقة التي تقطع وتيرة عمله بين اللحظة والأخرى لتسمع صوته...

صافحتني يدهُ برفقٍ، وقبضتُ يدي على يدهِ بحبٍّ، سألني عن سبب إعادة التحاليل... فتحتُ عيني باندهاشٍ، ثم هززت رأسي وقلتُ بدلالٍ: ستعلم فيما بعد.

مددتُ يدي، ولم يستطع إرغامي على إغماضِ عيني، كنت مصرّةً على مراقبةِ يده السمراء في خطواتها الأنيقة،يربط (الكارونة الخضراء) فوق مرفقي، ثم يبحث بسبابته اليسرى عن وريد ضاجٍّ بالحب، يمسح مكان تلك اللمسة بالكحول، ويسحب الدم بخفة، كانت كريات الدم قد تجمعت في تلك

المنطقة، تأخذ شكل حروف اسمه الأربعة، وكلٌّ منها تحاول أن تكون الأسبق في الوصول إليه، وإخباره بمشاعري البعيدة عنه.

دخلتُ المخبر في اليوم التالي وأنا في غاية الأناقة، أرتدي فستان الستان الأزرق والكعب العالي والعطر يتطاير رذاذًا من شعري الأشقر.

استقبلني بحفاوة وكأنه يعتذر مني عن عدم إحساسه بمشاعري، طلب مني الجلوس لثوانٍ، ثم عادَ بابتسامةٍ ومعه النتيجة قائلًا: تبدين اليوم أجمل.

أعطاني النتيجة، فضحكتُ له وأنا ألتهم وجهه بعيني: وما النتيجة؟

أوْرَقَ وجهه وفتح يديه قائلًا: ممتاز.. القيم كلها طبيعية.

غادرتْ الابتسامةُ شفاهي وكأنه فتحَ صنبورًا من الماء المغلي على جسدي.

فتحتُ الورقة بسرعة، مجردُ أرقامٍ ورموز دون أي خط أحمر، ألم ينتبه للونِ الجديد الذي اكتسبهُ كرياتُ دمي النابضة باسمه؟! ألم يقرأ اسمهَ في كلِ كرية من كريات دمي؟!

نظرتُ إليه بعصبيةٍ أدهَشَتْهُ، وضربتُ كفي بالطاولة وقَدَحَ الغضبُ في وجهي، خرجتُ ملّقيةً نظرةً أخيرة على ووجهه الممتلئ بإشارات الاستفهام صارخةً به: يا لك من مِخبري غبي!!!

شيطان.. رقيق

يامن نوح

"ألا يبكي هذا الطفل أبدًا".. قلت لنفسي..

دخل هذا "الطفل" إلى المترو الذي أركبه بصحبة أمه مفرطة البدانة، وأخيه الذي كرهته؛ لأنه ذكرني بي صغيرًا.. مثال الطفل الأحمق.. السمين.. منكوش الشعر.. متسخ الوجه.. لا يكف عن أحلام اليقظة.. وتخيُّل نفسه في صور ليست هو على أية حال..

أما الصغير.. والذي لا يتعدى عمره السنوات الست.. فقد كان هو الطفل الذي يخيفني ما بداخله أكثر من شفقتي عليه.. طفل نحيف.. واسع العينين.. كف، عن الشعور بالألم منذ فترة.. فما عادت تؤثر فيه ضربات أمه المبرحة.. المليئة بالغيظ الغريب على الأمهات.. ولا شتائمها المهينة.. والتي لا تفعل فيه إلا أن تؤكد له أنه نجح في إثارة أعصابها.. وذلك يمتعه حقًا.. فيزيد في استفزازها أكثر فأكثر.. حتى تيأس وتكف عن كل شيء.. وهنا فقط.. يهدأ في انتظار أن تستعيد قوتها على الانفعال مرة أخرى.. وهكذا..

دخل وفي يده "بوستر" ملفوف.. وهو يردد في حماسة عصبية.. "ارقص.. يا حضري".. ومن فرط انفعاله يحدِّث أخيه البدين عن عصام الحضري، وعن صورته التي اشترتها له أمه بعد عناء وإلحاح شديدين.. وهو لا يكف عن ترديد.. "ارقص.. يا حضري".. وبينما هو يتكلم إلى أخيه.. يوجه حديثه إلى الركاب الواقفين في المترو.. فواحد يتجاهله وآخر يبتسم له في صمت.. كان في قمة انفعاله.. حتى قرر أخوه السمين الأحمق أن يمارس عليه دور الأخ الأكبر في أحد أحلام يقظته.. فنهاه عن الكلام لأنه يؤذي الركاب..

فرصة لا تعوَّض بالنسبة له.. لكي يثير أعصاب هذا الأخ الأحمق.. وهذه الأم التي ترقب كل ذلك صامتة مترقبة..

فقال له الصغير في وقاحة: "أنت هاتعمل عليَّ كبير ولا إيه يا عم؟!!" ارتبك البدين للحظة.. ثم حاول أن يضربه ضربة كانت خائفة مترددة كصاحبها.. فتفاداها الصغير بخفة.. وذهب إلى الجانب الآخر من العربة.. مبتسمًا متلذذًا بإثارة أعصاب أخيه.. الذي قال محذرًا: "ماشي.. لما نروَّح البيت هاوريك".. كانت هذه أسعد لحظات الصغير.. إذ يرى أخاه الكبير محرجًا وعاجزًا عن التصرف.. فأخذ يقول: "يا عم روح يا عم".. ويخرج له لسانه في استفزاز..

لم يجد الكبير ما يفعله.. فردد تهديده للحظات ثم أدار ظهره لينظر من زجاج المترو، باحثًا عن حلم يقظة آخر..

لكن الصغير لا يرتاح لهذا الهدوء.. فاقترب من أخيه الغافل.. وضربه بالـ"بوستر" الملفوف الذي يحمله على مؤخرته الممتلئة.. فجن جنون الكبير، ودار يسب ويلعن، والآخر غارق في الضحك.. يلوح بالـ"بوستر" في الهواء مانعًا أخاه من الاقتراب، والآخر يحاول أن يقترب منه ليأخذ السلاح فلا يستطيع.. أحيانًا ينجح في توجيه ضربة أو اثنتين إلى الصغير الذي لا يبدي أي تعبير عن الألم.. الضرب كان مبرحًا على صغير مثله.. مما أثار غيظي.. ألا يبكي هذا الشيطان أبدًا.. وأخذ الصراع يحتدم.. والصوت يعلو.. وضحكات الصغير تزداد شراسة.. وسباب الكبير البدين يزداد علوًّا وعجزًا.. وكلاهما يحاول أن يستحوذ على السلاح الفتاك..

وهنا قررت الأم أنه لا بد من التدخل.. فتحركت من مكانها قليلًا، وكأنها "أبو الهول" يفيق من سباته العميق.. حتى إني شعرت بأن بعض الرمال سوف تتناثر حول مقعدها..

وقالت في هدوء مرعب.. "هات البتاعة دي".. وكان الكبير قد استطاع لتوِّه أن يحصل عليها.. فنظر لها الاثنان في خوف.. ونظرا لبعضهما.. إلا أن اللهجة علت قليلًا؛ مما ينبئ بعاصفة قادمة.. "هات البتاعة دي".. فسلمها الكبير إياها في

خوف.. وابتعد كلاهما عنها بمسافة كافية، وجسداهما ينتفضان.. فأمسكت الأم الـ"بوستر" بهدوء.. وقطعته إلى نصفين.. ثم إلى أربعة.. وبهدوء قاسٍ.. قالت للصغير: "خذ"..

مد الصغير يده وأخذ بقايا لوحته.. ولم يقل شيئًا.. وبدا عليه الارتباك.. والعجز.. ثم أدار وجهه.. لينظر من زجاج المترو..

وبكى..

شهادة خروج

يوسف أحمد

كانا جالسين – هو وهي – أمام المطعم الفخم في ذلك الميدان الكبير، كانا يتناقشان في بعض شئون الحياة؛ حين وقفت أمامهما، كانت طفلة صغيرة، لا يتعدى عمرها الثمانية أعوام، ملابسها ممزقة ورثّة، من الواضح أنها تقف بغرض التسول، قالت: والنبي يا عمو هات أي حاجة لله.

– يعني إحنا لو معانا فلوس ما كنا دخلنا أكلنا جوا.. إيه اللي هيقعدنا برا؟

– يا عمو والنبي بقا..

– بصي.. إحنا الاتنين مفلسين.. فلو أي حد إداكي حاجة.. ممكن تيجي تقسميها معانا.

– يا عمو أنا مكلتش حاجة من الصبح..

– يااااااااااه.. ولسا عايشة لحد دلوقتي؟!!!

– وحياة غلاوتها عندك إديني أي حاجة..

– طب وليه الإحراج ده بس.. إنتي اسمك إيه يا شاطرة؟

– سارة.

وضع يده في جيبه؛ فأخرج عملة معدنية فئة الخمسين قرشًا، وأعطاها لها، معتقدًا أنه بذلك قد تخلص منها، لكنها ما لبثت أن وقفت بعيدًا، وظلت تقول بصوت عالي: بتحبها بس خايف تقولها... وظلت تكررها لعدة مرات؛ مما دفعه للضحك، نظرت إليه صديقته متعجبة، وسألت: إنت بتضحك على إيه بالظبط؟!

- أصلها كوميدية قوي.

- إيه الكوميديا فيها بالظبط؟.. أنا مش فاهمة..

- إنتي عارفة إني ماليش في الكلام الفارغ ده.

- آه.. ما أنا قلت كده برضه.

ران الصمت لبرهة، ثم بدا أنه لن يستطيع أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك؛ فارتفع صوت القهقهة مرة أخرى، نظرت إليه غاضبة تلك المرة، وسألت: إيه اللي بيضحكك دلوقتي بقا؟

- أصلك اتضايقتي قوي.

- فين ده؟ أنا متضايقتش ولا حاجة.

- لا بالعكس.. ده إنتي شكلك متضايقة جدًا.

- يا سلام!! طب وأنا هتضايق من إيه أصلًا؟

- تكونيش بتحبيني ولا حاجة؟!..

هاهاهاهاهاهاهاهاها...

امتزجت لديها مشاعر الخجل بالغضب، تركته حيث يجلس وانطلقت مسرعة، لم يحاول إيقافها؛ فقد كان يرى ما لا ترى، فهي لم تلتفت لترى السيارات القادمة أثناء عبورها الطريق، فأتت سيارة مسرعة وأطاحت بجسدها الرشيق قليلًا من الأمتار، قبل أن تسقط على الأرض دون حراك، تجمهر حولها الناس، وهنا فقط توقف عن الضحك، ووقف مذهولًا ينظر إليها، كان يبدو من مظهر الناس أنها فارقت الحياة، لم يتجه نحوها، اكتفى بالتلويح قائلًا لنفسه: طبعًا لازم تموت؛ ما هي مش زي بقية الناس، هي الوحيدة اللي معاملتنيش زيهم.. على إني مجنون...

ثم أخرج من جيبه ورقة.. تحدد مسار حياته منذ عامين، ولمدة ألف من الأعوام، كانت شهادة خروجه من المصحة، التي تفيد بأنه أصبح قادرًا على مواصلة مشوار الحياة، وهو ما لم يصدقه من حوله، وربما لم يصدقه هو نفسه، نظر إلى الورقة مليًّا، ثم أعادها إلى جيبه، ثم توجه لعبور الشارع، غير عابئ بأبواق السيارات من حوله، لربما لم يكن يسمعها، فقد كان صوت قهقهته تلك المرة أعلى من اللازم.

ســـــرد

يوسف فلتس

من أول كلمة قالتها له أحس أن كل ما كان ليس إلا ماضٍ قد كان يومًا وانقضى، لحظتها أشرقت بباله معانٍ جديدة لما طالما ردده من قبل، من أنه "لا تصح النهاياتُ إلا بصحة البدايات".

لكنه يومها تأكد من إمكانية تغيُّر الهوى وتبدل الأحوال، أيقن كل اليقين من نسبية النهايات، وأن كل إنسان يختار نهاية ما يبدأ، وبداية ما ينهي أيضًا.. "كل حد اختيار أو وهم، وكل اختيار ووهم حد".

هو لا يعرف أسباب اختياراته، حدود مشاعره، غرامه، مواسم رياح أهوائه واتجاهاتها، حدود وجود من يهوى فيه، وحدود وجوده فيها، لكنه يعرف أنه يريدها أن تغني له "أحبك".. وأن صوت هذا الغناء لن تماثله أي موسيقى في كل هذا الكون.

كيف تطورت الأمور لهذه الدرجة؟ كيف بدأت وكيف ستنتهي؟ كيف تبدأ هذه الأمور وكيف تنتهي؟ كيف بدأ وكيف سينتهي؟

يجتاحني نسيم التغير فيسلمني لأعاصير التحول؛ فأصير من حال إلى حال، فأصبح قصة تحكيها الدقائق والساعات والأيام، مثلما أحكي أنا جوهر روحي في فلسفتي ونظرياتي ونظراتي، يسرد العالم قصتي مثلما أسرد أنا قصص الآخرين وقصصي المنقضية.

هل أترك الزمان يعزف منفردًا سيمفونيته الغريبة هذه التي هي أنا، أم أتدخّل لأشاركه الارتجال؟هل أنتظر دخول كمنجاتها لتزيد مقطوعته عمقًا، أم أعطي الإشارة لإيقاف جميع الأصوات والأنغام داخلي لأسمع طبول قلبي عندما يسمع صوتها، أو لأسمع ناي شجني عندما يشتاقها؟

أحيانًا كل ما يريده هو اللقاء، وأحيانًا كل ما يريده هو الاشتياق إلى اللقاء.

"الشوقُ يسكن باللقاء،والاشتياقُ يهيج بالالتقاء.. ما عرف الاشتياق إلا العشّاق.. للنار التهابٌ وَمَلَكَة، فلا بد من الحركة، والحركة قلق، فمن سكن، ما عشق..كيف يصحُّ السكون؟! وهل في العشق كُمون؟! هو كلُّه ظهور، ومقامُه نشور".

كيف يمكنه أن يصدق ابن عربي، وهو لا يعرف السكون، ولا يعرف غير الكمون؟

فأنا أكتب عنها لأنه أحبها، وهو يحبها لأنني أكتب عنها.

قالت له: إن كنت تحبني لأنني جميلة، اذهب وتعلم الموسيقى؛ فهي أجمل مني، لكن كل الموسيقى التي يسمعها هي هي، وكل شيء جميل هي أيضًا، ولا جمال يكاد يخلو منها.. لقد بدأ الخوف يتسرب إليه أن يمسي ليلة ليصبح متجنبًا النظر لأي جميل؛ ليتجنب رؤيتها فيه، ليهرب من صورتها؛ إن كان القدر قد أقسم قبل بدء الزمان بفراق قاس لا يليه أمل أو حتى عتاب يحمل شيئًا من الصدق.

يرجو القضاء؛ إن كانت نهاية قصته مؤسفة بهذه الطريقة، أن تطول الليالي التي لا يزال الأمل فيها على قيد الحياة، ويرجو نفسه أن تستمع بكل دقيقة من هذا الأمل الذي لا يقارن بأي شيء آخر.

لا يعرف متى يتوقف سرد الزمان لحكايته، أو متى يتوقف عزف الكون مقطوعتها الشجية الشاقية على أوتار روحه؟ هي في نظره ليست قطعة موسيقية عذبة فحسب، بل عالم كامل خاص به وحده، هدية كونية فريدة من نوعها، أحاول أحيانًا أن أصورها له كحدث قد يكون جزءًا من شيء أجمل وأعظم لأخفف عنه ثقل الصدمة إذا انتهى الحلم وبقي العلم على ما كان عليه قبل أن يعرفها، لكنه لا يقبل بأية إشارة أو حديث عن الجزئية.

لقد صنع عالمه، وهو فرح بكل ما هو فيه، الناقص منه والكامل، لكن أين هي من هذا العالم الخيالي؟ بماذا يرد آدم إذا سُئل بعد طرده من الجنة: "هل تريد حواء معك إن فُتحت لك أبواب الجنة مرة أخرى؟"

عالمه خالٍ منها، لكن ليس تمامًا، ولو أرادت الدخول إليه واقتحامه بالجسد مثلما اقتحمته بروحها الخفيفة مثل الهواء التي لا تلقى مقاومة إلا من سدود الفراغ لما ترددت في منعها، ولكن بكل ما أستطيع من رقة.

أحيانًا أريد كل شيء إلا اللقاء، أحيانًا كل ما أريده هو الاشتياق إلى اللقاء.

فأنا أكتب له عنها؛ لأنني لا أستطيع أن أحبها حبًّا كاملًا، ولا أستطيع أن أحبها حبًّا كاملًا لأكتب له عنها.

أسأله ماذا سيفعل لو صارحته بحبها؟ هل سيقبل بأي حب، هل سيرضى بأن يكون حبه الأعمق؟ هل يثق فيما سيغيره الزمن الآتي إن قبِل بحب أقل مما يرغب فيه منها؟

أسأله ماذا سأفعل أنا إن قبِل ومضى من عهد الهيام إلى وعود الوئام؟

هل أكتب عنهما؟ هل أبقى أنا رواية في حكم النسيان؟ أو أتحول إلى الإله ست؛ لأفرق شتات أوزيريس، هذا الذي نزل من حضرة آلهة الخيال؛ ليشقى على أرض الحقيقة؟

أم تأتي إيزيس أخرى لتجمع شتات أوزيريس آخر، وتبعثه من جديد إلى مملكة البقاء الأزلي، وتخلق معه ست آخر؛ ليكونا أصدقاء في السماء وأعداء على الأرض؟

"يوم أُفني كُلّ ما خلقت

يعودُ الوجود محيطًا بلا نهاية

وأعودُ كما كنتُ دومًا

أفعى

عصية على الأفهام"...

من تراتيل الإلهة الأم

الفهـــــــرس